

تُوفه يانسون

الطّفلةُ الخفيّةُ

حكايات من وادي المومين

تُوفَه يانسون

الطّفلةُ الخفيّةُ

حكايات من وادي المومين





إلى صوفيا

Original title in Swedish: Det osynliga barnet
Arabic text: Sukaina Ibrahim

Printed at ScandBook, Falun 2020
ISBN 978 91 87333 43 9
Bokförlaget Dar Al Muna AB Box 127
182 05 Djursholm Sweden
www.daralmuna.com



تُوفَه يانسون

الطّفلةُ الخفيّةُ

حكايات من وادي المومين



النص العربي: سكينة إبراهيم

دار المنى

حِكاياتٌ مِن وادي المُومين



لَحنُ الرَّبيعِ



في مساءٍ ساكنٍ ومُنقشعِ الغيومِ قُبيل نهايةِ شَهرِ نَيْسان، ارتأى سنفكين أنَّه قَد توغّلَ شمالاً بِما يكفي، لِيُمتّع عَينيه بمشهدِ رُقعِ الثّلجِ التي لم تَذُب بعدُ على المُنحدرات الشّمالية.

كانَ قد سرحَ النّهارَ بطولِه في الطّبيعةِ البِكر، يستمعُ إلى نِداءات الطّيورِ وهي تيمّمُ شمالاً مِثله، عائدةً إلى دِيارها مِن الجنوب.

كانَ المشيُ سهلاً عَليه، فَجرابُه شِبه فارغٍ، وبالُه خالٍ من الهُموم. وسعادتُه بنفسِه وخَلوتِه وبالجوّ والغابةِ تغمرُه. الغدُ بعيدٌ، والأمسُ بعيدٌ، وفي الوقتِ الحاضرِ الشّمسُ تسطعُ مُرسلةً أَشعةً حمراءَ فاقعة بين أشجارِ البتولا، والهواءُ مُنعشٌ ومُعتدلٌ.

-«إنّه المساءُ المناسبُ لتأليفِ لَحنٍ،» فكّر سنفكين. لحنٌ جديدٌ، فقرةٌ مِنه فيها تَرقّب، وفقرتان محمّلتان بشُجونِ الرَّبيع، أمّا بَقية اللحنِ فمُخصّصةٌ للابتهاجِ العَظيمِ الذي يشيعُه في نفسِه مَشيُه وحيدًا، وشعورُه بأنّه مُستمتعٌ بهِ.

احتفظ بِهذا اللحنِ تحتَ قُبّعتهِ عِدّة أيّام، لكنهُ لم يتجاسَر بَعد لِيُخرجَه إلى حَيّزِ الوجودِ. إذ يَنبغي أن يتكاملَ لِيصبحَ نوعًا من الاستبشارِ الحَتمي. حينها يُسلّم شَفتيهِ ببساطةٍ إلى الهارمونيكا، فتقفزُ النّوتاتُ الموسيقيةُ فورًا وتستقرُّ في أماكنِها.

إذا أطلقَ سراحَ النّوتاتِ في وقتٍ مُبكرٍ قد تتقاطَع في ما بَينها، ولا ينجمُ عَنها سوى لحنٍ نِصف مقبولٍ، أو حتّى قد يَفقدها جملةً وتفصيلاً، ولا يَختبر أبدًا مزاجًا مناسبًا لِيعثرَ عليها ثانيةً. الألحانُ أشياءٌ جَدّية، خصوصًا إذا توجّبَ أن تكونَ مرحةً وحزينةً في الوقتِ نفسِه.

إنّما في هَذا المساءِ شعرَ سنفكين أنّه متأكّدٌ تقريبًا من لحنِه. فاللحنُ مستقرٌّ هناك في رأسِه، ويكاد يكونُ مُكتمِلاً، لا ينتظرُ إلّا الخروجَ، وسيكونُ أفضلَ لحنٍ ألّفَه في يَوم.

بعدئذٍ، بعدَ أن يحطَّ رِحاله في وادي المومين، يجلسُ على سكّةِ الجسرِ ويَعزفُهُ، حِينها يَنبري مومين ترول إلى القولِ حالاً: «هَذا لحنٌ جيّدٌ. لحنٌ جيّدٌ حقًا.»

تسمّرَ سنفكين في أرضِه وقَد اعتراهُ شعورٌ ببعضِ الضّيقِ. نعَم، إنَّ مومين ترول دائِمُ الانتظارِ والاشتياقِ. مومين ترول الذي يُلازِمُ البيتَ، الذي ينتظرُ عودتَه ويُقَدِّرُه، والذي قالَ له دائمًا: «يجبُ أن تشعرَ بالحرّيةِ حتمًا. مِن الطّبيعي أن ترحلَ. أنا أفهمُ أنّك تحتاجُ إلى الاختلاءِ بنفسِكَ أحيانًا.»

يقولُ ذلكَ وعَيناهُ تَغمرهُما كآبةُ خيبةِ الأملِ طوال الوقتِ، ولا أحدَ يستطيع فِعلَ شيءٍ حيالَ ذلكَ.

-«أوه.. آه.. أوه.. ياه..» همهَم سنفكين بَينهُ وبينَ نفسِه وتابعَ طريقَه.

-«أوه.. ياه.. آه.. مشاعرُه متدفّقةٌ هَذا المومين ترول. لن أفكّرَ فيه الآن. هو مومين رائعٌ، لكن ليسَ علَي أن أفكّرَ فيه الآن. الليلَة أنا وحدي مَع لَحني، والليلَة لَيست بأي حالٍ غدًا.»

خلالَ فترةٍ قصيرةٍ نجحَ سنفكين في تَناسِي مومين ترول. فمضَى يُعمِلُ أنفَه في الأنحاءِ بحثًا عن مكانٍ مُناسبٍ للتّخييمِ، ولمّا سمعَ خريرَ جدولٍ على مسافةٍ أبعَد نوعًا

ما في الغابَة، اتجهَ نَحو مصدَر الصّوتِ.

كانَ آخرُ شعاعٍ أحمَر من نورِ الشّمسِ قد توارى خلفَ أشجارِ البتولا، مُفسِحًا المجالَ للغسَق الرّبيعي الذي أقبلَ مُتمهّلاً ومُكللاً بالزُّرقةِ. تبدّلَت حالُ الغابةِ بأسرِها، وراحَت أعمِدة أشجارِ البتولا البيضاءُ تهيمُ على وجهِها في حنايا الغسقِ الأزرقِ مبتعدةً أكثرَ فأكثرَ.

كانَ الجدولُ جيّدًا.

اندفعَ مُنسابًا ورقراقًا وبُنّيًا فوقَ أكوامِ أوراقِ أشجارِ السَّنةِ الفائتة، مُتغلغلاً في أنفاقٍ صغيرةٍ من الثَّلجِ المُتخلّف، مُنحرِفًا بين الأشنةِ الخضراء، ثمّ مُلقيًا نفسَه بِتهورٍ مُشكّلاً شَلالاً صغيراً يصبُّ في قاعِ رملٍ أبيض. في بعضِ المواضِع دندَن بإيقاعٍ حادٍّ مثلَ طنينِ بعوضةٍ، ثمّ حاولَ أن يُصدرَ صوتًا عظيمًا ومُتوعّدًا، ثمّ توقّفَ، تغَرغرَ بملءِ فَمه بثلجٍ ذائبٍ، وضحكَ ساخراً من ذلك كلّه.

وقفَ سنفكين ينصتُ وسطَ الأشنةِ الرّطبةِ. «يجبُ أن أُضيفَ الجدولَ إلى لَحني،» فكر. «في اللازِمَةِ ربّما.»

تحرّرَ حجرٌ صغيرٌ من مكانِه فجأةً قربَ الشّلالِ فرفعَ نغمَة الجدولِ ثمَاني درجات دفعةً واحدةً.

-«مَقبول،» قالَ سنفكين بإعجابٍ.« هَذه هِي طريقةُ تركيبِ اللحنِ. تغييرٌ مُفاجئ بنقلة تِلقائيةٍ. وعلَي أن أؤلّفَ لهَذا الجَدول لحنًا خاصًّا به.»

أخرجَ وِعاءَه القديمَ ومَلأه من الشّلالِ. ثمّ مضَى نحوَ أشجارِ التّنوبِ بحثًا عن الحَطب. وبِما أنَّ الأرضَ ما زالت رطبةً بسببِ الأمطارِ الرّبيعية وذَوبانِ الثلج، اِضطرَّ سنفكين إلى الزّحفِ والتّوغّلِ تحتَ الأيائِك الشّائكة التي طرحَتها الرّيحُ، أمَلاً بالعثورِ على بعضِ الأعوادِ الجافّةِ. عِندما خرجَ إلى الخلاءِ، أطلقَ مخلوقٌ ما صيحةً مباغتةً

واندفعَ مارًّا به، ثمّ تَوارى بينَ أشجارِ التّنوب من غيْرِ أن يكفَّ عن الصياحِ والصّريرِ.

-«أوه، نعَم،» قالَ سنفكين. «غَريبُو الأطوارِ والانطِوائيون في كلّ مكان. غريبٌ كيفَ يَبدون دائمًا على هَذه الدّرجةِ من التّوتّرِ، وأصغرهُم حجمًا أكثرهُم هياجًا.»

عثرَ على أَرومةِ شجرةٍ يابسةٍ وبَعضِ العِيدان، فأشعلَ نارَ تَخييم لطيفةً قُرب الجدولِ. كانَ سنفكين مُعتادًا على أن يطبخَ بنفسِه عشاءَه. ولم يُحَضّرْ قطّ العشاءَ لأي مخلوقٍ آخَر في حالِ تمكّنَ مِن تَفادي ذلك، وكذلِك لَم يكترِث كثيراً بعشاءِ غيْرِه من النّاسِ، فمُعظمهُم يُصِرّون على تبادُل الأحاديثِ وهم يَتناولون طعامَهم.

وهُم أيضًا مُولعون كثيراً بالكراسي والطّاولاتِ، وبعضُهم يستعملُ المناديلَ. بل سمِعَ أيضًا عن هِيمْيُولِن يبدّلُ ملابِسه كلّما أرادَ أن يأكلَ، إنّما مِن المُحتمل أن تكونَ هَذه الحِكاية نوعًا من الافتراءِ.

تناولَ سنفكين حساءَه غيْر الدّسمِ وشَيءٌ من تَشوّشِ الذّهنِ يَعتريه، فانبَرى يُريح عينيهِ بتأمُّل الأشنةِ الخضراءِ المُحيطةِ بالأشجار.

كانَ اللحنُ قريبًا جدًّا مِن مُتناولِه، ومِن السّهلِ القبضُ عليهِ من ذيلِه. لكن ما زالَ هناكَ وقتٌ كافٍ للتريّثِ: فَهو مُحاطٌ بالسّياجِ في داخِل رأسِه ولا يمكنُ أن يُفلتَ. لا، يُستحسنُ أن يغسلَ الأوعيةَ أولاً، ثمّ يشعلُ غليونَه، وبعدَ ذلك، والنّارُ تحترقُ وتذوي، ومخلوقاتُ الليلِ تَبدأ في إطلاقِ نِداءاتها، في وسعهِ أن يطلقَ سراحَ لحنه.

كان سنفكين يغسلُ أوانيهِ في الجَدولِ عِندما لمحَ المَخلوقَ الغريبَ. رآهُ قابعًا في الطّرف البعيد عند جذرِ شجرةٍ يتفحّصُه. عَيناه مَرعوبتان ولكن مُهتمّتان جدًّا، تُتابعانِ بحِرصٍ تحرّكات سنفكين كلّها.

عينانِ خَجولتانِ تحتَ مِكنسَةٍ من الشّعرِ. وهذا بالضّبطِ مظهرُ الأشخاصِ الذين لا يُلاحِظهم أحدٌ أبدًا.

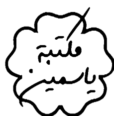
تظاهَر سنفكين بأنّه لم يَر المخلوقَ الغريبَ. اِلتَفت يؤجّجُ نارَه، واقتطَع لنفسِه بعضَ أغصانِ التّنوب ليجلسَ عَليها. أخرجَ غليونَه وأشعلَه. نفخَ مجموعةً من الغيومِ الدّخانِية نحو سماءِ الليلِ، ولَبثَ ينتظرُ لحنَه الرّبيعي.

لم يأتِ اللحنُ. بدلاً من ذلكَ شعرَ بِعَينيّ المَخلوق الدّخيلِ المتسمّرتين عليه تراقِبانه بانبهارٍ عظيمٍ، فبدأ عدمُ الارتياحِ يسيطرُ عليهِ من جَديدٍ. ضربَ كفًّا بكفٍّ وصاحَ: «هش! اِنصَرف!»

حينئذٍ، تسلّلَ المخلوقُ العجيبُ مِن مَكمنه الذي كانَ في الضّفّةِ الأخرى من الجَدولِ، وقالَ بِحياءٍ بَالِغٍ: «أتمنّى ألّا أكونَ قد أَخفتُكَ! أعرفُ من أنتَ. أنت سنفكين.»

ثمّ خَطا نحوَ الماءِ مُباشرةً وبدأ يَخوضُ الجدولَ إلى الطّرفِ الآخَر. كانَ الجدولُ كبيرًا جدًّا بالنّسبةِ إلى حجمِهِ، والماءُ باردًا كالثّلجِ. مرّةً أو مرّتَين فَقَدت قَدمُه مَوطِئها وتعثّرَ، بَيْدَ أنَّ امتعاضَ سنفكين حالَ بَينَه وبَين التّفكيرِ في مَدّ يَدِ المساعدةِ لَه.

أخيرًا زحفَ مخلوقٌ غريبُ الشّكلِ وهزيلٌ وبائسٌ إلى اليابِسة وقالَ من بين





أسنانِه المُصطكة: «مرحبًا. أنا سعيدٌ جدًّا بِلقائِكَ.»

-«أهلاً،» أجابَ سنفكين بِبرودٍ.

-«أيمكنني أن أتدفأ بنارِكَ؟» تابَع المخلوقُ العجيبُ ووجهُه الصّغير الذي يقطرُ ماءً يشعُّ سعادةً. «فكِّر في هَذا فقط، سأكونُ المخلوقَ الذي جلسَ أمام نارِ مخيّمِ سنفكين. لن أنسى ذلكَ ما حَييت.»

اقتربَ المخلوقُ الصّغير أكثر ووضعَ يدَه على حقيبةِ ظهرِ سنفكين، وهمسَ بِجديّةٍ: «أتحتفظُ بالهارمونيكا فيها؟ أَهيَ هُنا؟»

-«نعَم،» أجابَ سنفكين بِشيءٍ من الحِدّةِ. فقَد ضاعَ لَحنُه، خُلوته انتهَت، كلّ شيءٍ أصبحَ مختلفًا. أطبقَ أسنانَه على غليونِه وحدّقَ في ما بين أشجارِ البتولا مِن غيْرِ أن يَرى شيئًا فعلاً.

-«ليسَ عليكَ الآنَ أن تُبالي بي،» قالَ المخلوقُ العجيبُ بِبراءةٍ. «في حالِ رغبتَ في أن تعزفَ، أعني. لا يُمكنكَ أن تُخمّنَ كَم أتوقُ إلى سماعِ بعضِ المُوسيقى. لم يَسبِق لي أن سمعتُ شيئًا منها. إلا أنّني سمعتُ عنكَ. الخنزيرُ البَري وتُوفل وأُمّي أخبروني... وتُوفل رآكَ مرّةً! نعَم، لا يُمكنكَ أن تتخيّلَ... لا شيءَ مُهمّ يحدثُ هنا أبدًا... لَكننا نحلمُ كثيراً كثيراً...»

-«حسنًا، ما اسمكَ؟» سألَه سنفكين مُستسلمًا؛ فالأمسيةُ قد أُفسِدَت في جميعِ الأحوالِ، ورأى أنّه من الأسهلِ أن يبادلَه الحديثَ.

-«أنا صغيرٌ جدًّا إلى درجةِ أنّني بلا اِسم،» قالَ المخلوقُ بِلهفةٍ. «في الحقيقة، لا أحدَ سَألني عن اِسمي مِن قَبل. ثمّ هَا أنا ألتقِيكَ، أنتَ الذي سمعتُ الكثيرَ عنكَ، وتشوّقتُ دائمًا إلى رؤيتكَ، وأوّل ما تَسألني عنهُ هو اِسمي! أَتعتقِد... أنّكَ ربّما... أعنِي... أهناكَ إزعَاجٌ كَبير لكَ في أن تخترعَ لي اِسمًا، اِسمًا يكونُ لي وَحدي، ولا يَحق



لأحدٍ غيْري أن يَتسمّى به؟ الآنَ؟ الليْلة؟»

غمغَم سنفكين بكلامٍ مُبهم وأنزلَ قُبّعتهُ على عَينيه. في تلكَ اللحظةِ حلّق طائرٌ ما عبرَ الجدولِ بِجناحيْن طَويلين مُدبّبين وأطلقَ صيحةً مديدةً وحزينةً بين الأشجارِ: يو يووو، يو يووو، تي أوو...

-«أنتَ لن تكونَ حُرًّا أبدًا حقًّا ما دُمتَ تُضمِرُ الكثيرَ من الإعجابِ لِشخصٍ ما،» قالَ سنفكين فجأةً. «أنا أعرِف.»

-«أعرفُ أنّكَ تعرفُ كلّ شيءٍ،» دَمدمَ المخلوقُ الصّغير وهُو يمعِنُ في اقترابِه. «أعرفُ أنّكَ رأيتَ كلّ شيءٍ. أنتَ مُصيبٌ في ما تقولُه، وسأبذلُ جُهدي لأصبحَ حرًّا مثلكَ... أظنّ أنّكَ الآن في طريقكَ إلى وادي الومين لِترتاحَ وتُقابلَ أصدقاءَكَ... أخبَرني الخنزيرُ البَري أنَّ مومين ترول يَبدأ في توقّعِ قدومكِ حالَما يستيقظُ من بياتِه الشّتوي... أليسَ لطيفًا أن تعرفَ أنَّ هناكَ من يشتاقُ إليكَ وينتظرُ وينتظرُ لِيراكَ ثانيةً؟»

-«أَجيء في الوقتِ الذي يُناسبني!» صاحَ سنفكين باستياء. «ربّما ليس علَي أن أَجِيء أبدًا. ربّما يَحلو لي الذّهابُ إلى مكانٍ آخَر.»

-«أوه. عِندئذٍ سيَحزن،» قالَ المخلوقُ الصّغير.

كانَ فِراؤه قد بَدأ يجفُّ مُسفِرًا عن لونٍ بُنّي فاتِحٍ وناعم. لمسَ حقيبةَ الظَّهرِ مرّةً أُخرى وسألَ بحذرٍ: «أتتلطّف... ربّما... أنتَ الذي سافرتَ كثيرًا...؟»

-«لا،» قالَ سنفكين، وفكّرَ بغضبٍ: «لِماذا لا يُمكنهم أن يَتركوا أسفَاري وشَأنها؟ ألا يُدرِكون أنّني إذا اضطُررت إلى إخبارِهم عنها سأُفَصّلها تفصيلاً بحذافيرِها. وبالتّالي أَفقِدُها، وعِندما أحاولُ أن أتذكّرَ ما كانَت عليه فِعلاً، لا أتذكّر ألّا رِوايتي عَنها.»



خيّمَ عليهما صمتٌ طويلٌ، وصاحَ الطّائرُ الليلِي مرّةً أُخرى.

نهضَ المخلوقُ الصّغير وقالَ بصوتٍ مُنخفضٍ: «طَيّب. أعتقدُ أنَّه يجبُ علَي الانطِلاق. سَلامات.»

-«سَلامات،» أجابَ سنفكين، مُتململاً قليلاً. «اِسمَع، آ.. ذاكَ الاسمُ الذي طلبْتَه. ما رأيكَ بـ تيتي أواوا، على سبيل المثال. تيتي أواوا. كَما تَرى، هي بِدايةٌ خَفيفةٌ، نَوعًا ما، ثمّ نِهايةٌ فيها لمسةُ حزنٍ.»

حملقَ فيهِ المخلوقُ الصّغير بِعينيْن أسبغَ عليهما بصيصُ النّارِ لونًا أصفرَ. أمعَن التّفكيرَ في اِسمِه، تَذوّقَه، استمعَ إلى جَرسِه، تلمّسهُ، غاصَ فيهِ، وأخيراً رفعَ أنفَه إلى السّماءِ، وبِنعومةٍ عَوى اِسمَه الجَديد، فعلَ ذلك بحزنٍ بالغٍ وفرحٍ عظيمٍ بحيثُ اعترَت سنفكين رعشةٌ سرَت في ظهرهِ من الأعلَى إلى الأسفلِ.

بعدئذٍ، اختفَى ذيلٌ بُنّي بين العليقِ وسادَ الصمتُ كلّ شيءٍ.

-«ياه!» قالَ سنفكين وهو يركلُ جمرةً. طرقَ غليونَه ونفضَه، ثمّ نهضَ وصاحَ: «هَا، يا أنتَ، مرحبًا! عُد.»

إلّا أنَّ الغابةَ بقيَت صامتةً. «أوه، حسنًا،» فكّر سنفكين. «لا يمكنُ أن يكونَ

المرءُ وَدودًا دائمًا. هَذا مُستحيل؛ ليسَ هناكَ وقتٌ. إنّما على الأقلّ حصلَ هَذا العجيبُ على اِسم.»

عادَ وجلسَ واستمعَ إلى الجدولِ والسّكونِ وانتظرَ عودةَ لَحنِه. لكنهُ لم يأتِ. عرفَ فورًا أنَّ اللحنَ قد ابتعدَ عنهُ كثيرًا وباتَ الإمساكُ به مُتعذّرًا. الشّيء الوحيدُ الذي تَراءى له أنَّه يَسمعُه كانَ صَوْتَ المخلوقِ الصّغير الخجولَ والمُتلهّفَ، يتحدّثُ ويتحدّثُ ويتحدّثُ.

-«لِماذا لا يَبقون في بيوتِهم مع أُمهاتِهم،» قالَ سنفكين باستياء، وارتَمى على ظهرِه فوقَ أغصانِ التّنوب. بعدَ فترةٍ اعتدلَ جالسًا وصاحَ ينادي ذلكَ المخلوقِ من جديدٍ. أرهفَ سمعهُ وقتًا طويلاً؛ ثمّ أنزلَ قُبّعتَهُ على أنفِه ونامَ.

في الصّباحِ التّالي تابعَ سنفكين مَسيرتَه. كانَ مُتعبًا وغاضبًا، واتجهَ شمالاً من غيْر أن يلتفتَ إلى اليمينِ أو الشّمالِ. ولم تتحرّك تحتَ قُبّعتِه نغمةٌ واحدةٌ، ولا أضعَف مَطلَعِ لَحنٍ حتّى.

عجزَ بكلّ بساطةٍ عن التّفكيرِ في أي شيءٍ ما عَدا ذلك المخلوقِ الصّغير. استرجعَ في ذهنِه كلّ كلمةٍ مفردةٍ قالَها لهُ، وكلّ كلمةٍ مفردةٍ قالَها هو، مضغَ الكلماتِ مِرارًا وتَكرارًا إلى أن انتابَه الغَثيانُ واضطرَّ إلى الجلوسِ ليرتاحَ.

-«ماذا أَلَمَّ بي؟» فكّر سنفكين، حانِقًا وحائِرًا. «لم أشعُر قطّ من قَبل هَكذا. لا بدّ من أنّني مَريض.»

نهضَ وتابعَ طريقَه، وما لبثَ أن بَدأ كلّ شيءٍ من جديدٍ، كلّ ما قالَه المخلوقُ وكلّ ما أجابَه به.

أخيرًا رأى أن لا مَفرَّ من التّوقّفِ. وفي فترةِ العَصرِ استدارَ وعادَ أدراجَه من حيثُ أتى.

بعد مُضِي وقتٍ شعرَ بالتّحسُّن. مشى بخطواتٍ سريعةٍ، وبَقبَق وهو يَجري. رَفرَفت ألحانٌ صغيرةٌ حولَ أُذنيه، لكنه لم يَمتلِك الوقتَ لِيلتقِطها. قُبيلَ المساءِ كانَ قد وصلَ إلى غابةِ البتولا وشرعَ يُنادي.

–«تيتي أواوا!» صاح. «تيتي أواوا!» فاستقيظَت طيورُ الليلِ وأجابتهُ، تي أوو، تي أوو، لكنه لم يسمع للمخلوق الصّغير حِسًّا.

تمّشى سنفكين ذهابًا وإيابًا، يبحثُ ويُنادي ويُرهفُ السّمعَ، إلى أن حلّ الغسَق. طلعَ القمرُ الجديدُ وشعّ فوقَ فسحةٍ في الخلاءِ، ووقفَ سنفكين ينظرُ إليه وهو يشعرُ بِضياع ما بعدَه ضياع.

–«يجبُ أن أتمنّى أُمنيةً،» فكّر. «هَذا قمرٌ جديد.»

كادَ يَتمنّى الشّيءَ المعهودَ الذي يَتمناهُ عادةً، لَحنًا جديدًا، أو، كما فعلَ أحيانًا، دربًا جديدًا. لكنهُ تداركَ نفسَه على عَجلٍ وقال بصوتٍ عالٍ: «أتمنّى أن أعثرَ على تيتي أواوا.»

ثمّ دارَ حولَ نفسِه ثلاثَ مرّاتٍ وتجاوزَ الفسحةَ، ثمّ ذهبَ إلى الغابةِ وارتقى تلّةً.

حفّ شيءٌ بين الأشجارِ؛ فراءٌ بلونٍ بُنّي فاتِح.

–«تيتي أواوا!» ناداه سنفكين بلطفٍ. «عُدتُ لِنُدردشَ معًا قليلاً.»

–«أوه. مرحبًا،» أجابَ تيتي أواوا وهو يخرجُ رأسَه من بين الأشجارِ. «هَذا بديعٌ، لأنّ لَدي ما أُريدكَ أن تَراه. اُنظُر! لوحةُ اِسمٍ! واسمِي مخطوطٌ عليها، لأعلّقها على بابِي عندما يصبحُ عندي بيت يخصّني.»

عرضَ عليه المخلوقُ الصّغير قِطعةَ لِحاءٍ ووسمُ مالِكها عَليها، وأردفَ بجِدّيةٍ: «أَليسَت أنيقة؟ الجميعُ يَعتقدون أنّها كَذلك.»

–«أنيقةٌ جدًّا!» قالَ سنفكين. «إذًا، ستحصلُ على بيتكَ الخاصّ؟»

-«بالفِعل!» أجابَ الصّغير بحماسةٍ. «انتقلتُ من بيتِ أَهلي وبدأتُ أعيشُ! هَذا مثيرٌ للغايةِ! أَتَرى، قبلَ أن يكونَ لَدي اِسمٌ اعتدتُ ألّا أفعلَ شيئًا سِوى القفزِ هُنا وهُناك، وربّما أشعرُ بهَذا أو ذاكَ تجاهَ هَذا أو ذاكَ، والأشياءُ لطالما جرت ببساطةٍ من حولي، أحيانًا أشياءٌ لطيفةٌ وأحيانًا أشياءٌ غيْر لطيفةٍ، لكن شيئًا لم يَكُن حقيقيًا، أَتَفهمُني؟»

أرادَ سنفكين أن يجيبَ لوْلا أنَّ المخلوقَ تابَعَ: «الآن أنا مخلوقٌ لي وجودٌ، وكلّ ما يحدثُ يَعني شيئًا. لأنّه لا يحدثُ فقَط، بَل يحدثُ لي أنا تيتي أواوا. وتيتي أواوا يُمكنهُ أن يفكّرَ بِما يجري على هَذا النّحوِ أو على ذاكَ النّحوِ كمَا تَقتَضي الحالةُ، هَذا إذا كنتَ تَرى ما أَعنِيه؟»

-«بِالتّأكيدِ أرَى ما تَعنيهِ،» قالَ سنفكين. «هَذا جيّدٌ لكَ.»

هزَّ تيتي أواوا رأسَه وبَدأ يُنقّبُ بين الأشجارِ.

-«أَتَعلَم شيئًا،» قالَ سنفكين، «أنا في طريقي إلى رُؤية مومين ترول. في واقعِ الأمرِ، أنا أريدُ حقًّا أن أراهُ.»



-«أوه؟» هتفَ تيتي أواوا. «مومين ترول؟ آه نعَم.»

-«ربّما تودُّ أن تسمعَ بعضَ الألحانِ قبلَ أن اضطرَّ إلى مُتابعةِ رِحلتي،» أردفَ سنفكين. «أو ربّما بعضَ الحِكاياتِ؟»

أخرجَ المخلوقُ الصّغير رأسَه من بينِ الأشجارِ وقالَ: «حِكايات؟ أوه، نعَم. لاحِقًا الليلةَ، ربّما. الآن في اللحظةِ الرّاهِنةِ أنا في عَجلةٍ من أمرِي. أوه أنا واثِقٌ من أنّك لن تُمانِع...»

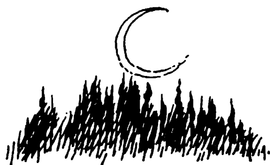
اختفَى الذّيلُ البُنّي الفاتحُ بين أوراقِ الخلنَج، وبعدَ برهةٍ ظهرَت أُذُنا تيتي أواوا في موضِعٍ أبعَد قليلاً، وصاحَ من هناكَ: «سَلامات، وبلِّغ مومين ترول تَحياتي! يجبُ أن أبدَأ حَياتي بسرعةٍ كبيرةٍ لأنّني أضعتُ وقتًا كثيراً حتّى الآن!»

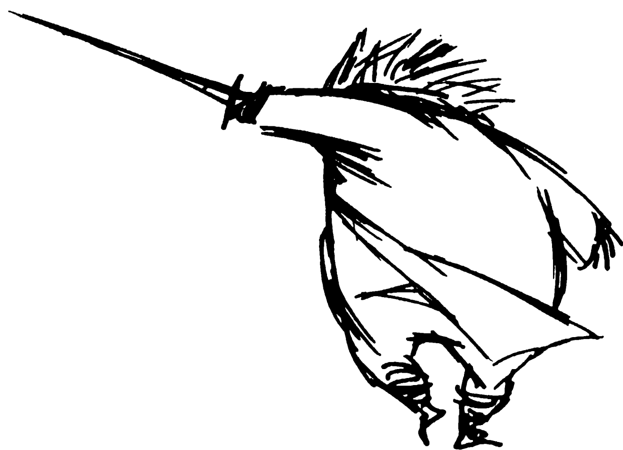
وبِهذا اختفَى.

حكَّ سنفكين رأسَه.

-«هه،» قالَ لِنفسِهِ. «هَكذا إذًا.»

تمدّدَ على ظهرِهِ ورَنا إلى سماءِ الرّبيعِ. كانت تطلُّ عليه داكِنةَ الزُّرقةِ وصافيةً، وتَصطَبِغُ بِخُضرةِ البحرِ عندَ رؤوسِ الأشجارِ. في مكانٍ ما تحتَ قُبّعته بدأ اللحنُ يَمورُ. مَقطعٌ منهُ ترقّبٌ، ومقطعانِ مُفعمانِ بأشجانِ الرّبيعِ، وتتمتُه بهجةٌ هائِلةٌ لأنّه مُخْتَلٍ هَناكَ بنفسه.





حِكايةُ رُعبٍ



كانَ الهومسان الأكبرُ من أَخيهِ الأصغَر يزحفُ قربَ سِياجِ الحديقةِ الخَلفيةِ. وبينَ تارةٍ وأُخرى يكمنُ ساكنًا بلا حراكٍ يَتحرّى مكمنَ العَدوّ قبلَ أن يُتابع زحفَه. أقبَل أَخُوه الرّضيعُ يزحَف خلفَه.

عندَ رقعةِ الخُضارِ سَوّى الهومسان نفسَه بالأرضِ، وتسلّلَ خِلسةً بين أوراقِ الخَسّ للتّمويهِ، إذ رأى أنّها فُرصتهُ الوحيدةُ، فالمكانُ يعجُّ بِكشّافةِ العَدوّ، وبَعضُهم حلَّقوا في الهواءِ بحُشود كبيرةٍ.

–«السّوادُ يُلطِّخني،» نقَّ شقيقهُ الرّضيعُ.

–«صَه، اِسكُت إن كنتَ تهتمُّ بالبقاءِ حيًّا،» أجابَه الهومسان بصوتٍ هامِس. «ما اللونُ الذي تتوقَّع أن يُلطِّخكَ وأنتَ في مُستنقع جَوزٍ؟ أزرَق مثلاً؟»

–«هَذا خسٌّ،» أجابَ الشّقيقُ الصّغيرُ.

–«وأنتَ ستصبحُ راشِدًا في أقصَر وقتٍ إذا بَقيتَ هَكذا،» قالَ الهومسان. «ستصبحُ مِثل بابا وماما، وبِالتّالي تَستحقُّ ما يحصلُ لكَ. حِينها تَرى وتَسمع أشياءً عاديةً فقَط لا غيْر، أَعني أنّكَ بِبساطةٍ لن تسمعَ أو تَرى شيئًا، وتِلك هي النّهايةُ.»

–«أففف،» تأفّفَ الشّقيقُ الصّغيرُ وبَدأ يأكلُ بعضَ التُّراب.

–«ذاكَ مُسممٌ،» قالَ الهومسان باقتضابٍ. «والفاكهةُ كلّها في هَذه البلادِ مُسمِّمةٌ أيضًا. اُنظُر الآن، لقَد اكتَشفونا بسببكَ.»

تقدّمَ نَحوهما عبرَ صفوفِ شَتلات البازلاءِ كشّافانِ من كشّافةِ العَدوّ وهُما يُدَمدِمان، بَيْدَ أنَّ الهومسان قضَى عليهِما بِهجمةٍ سريعةٍ. اِنزلقَ مُتواريًا في قناةِ الماءِ وهو يلهثُ من الحماسةِ وبَذْلِ الجُهد، وقبَع هناك ساكِنًا كضفدعٍ. أرهفَ السَّمع بإمعانٍ بحيث راحَت أُذناه تَرتعشان وكادَ رأسُه ينفجِر. حرصَ كشّافةُ العَدوّ الآخرون على التزام الهدوءِ الجَمّ، لَكنهم واصلوا تَقدُّمهم طوالَ الوقت، وتسلّلوا نَحوه بين الحَشيش بحذرٍ... حشيشِ المَرج. أعدادُهم الغفيرةُ تفوقُ العدَّ والحَصر.



-«اسمع،» قال شقيقه الرّضيعُ من عندِ حافةِ القَناة. «أريدُ أن أعودَ إلى البيت.»

-«أنت لن ترى البيتَ ثانيةً أبدًا،» أجابَ الهومسان بصوتٍ كئيبٍ. «عِظامكَ ستصبحُ بيضاءَ وستتبعثرُ في المرجِ، وماما وبابا سَيبكيان إلى أن يغرَقا بِدموعهما، ولن يتبقّى منكَ أثرٌ، لا شيءَ على الإطلاقِ، أو ربّما القَليل الذي يُمكن أن تَعوي

عليه الضِّباعُ.»

فتحَ شقيقُ الهومسان الرّضيعُ فمَه، أخذَ نفسًا عميقًا وأطلقَ صوتَه بالصّياح والبُكاءِ.



تكهّنَ الهومسان من نَبرة ذلك البُكاء أنَّه سيدومُ وقتًا طويلاً. فتركَ شقيقَه الرّضيعَ وحدَه، وزحفَ على طولِ قناةِ الماءِ. ما عادَت لديهِ أيُّ فكرةٍ عن مكانِ العَدوّ؛ بَل بات لا يعرفُ كيفَ يبدو شكلُ ذلكَ العَدوِّ.

رأى أنَّه قد وقعَ ضحيّةَ مكيدةٍ، وفكّر: «أتمنّى لو أنَّه لا وجودَ للأشِقاءِ الرُّضّعِ. يَنبغي أن يُولدوا كِباراً، أو ربّما أن لا يُولدوا بتاتًا. إنّهم لا يعرفونَ شيئًا عن الحروبِ. يجبُ أن يظلّوا في صَناديقَ إلى أن يَستوعِبوا الأمورَ.»

كانت قناةُ التّصريفِ مَغمورةً بالماء، فنهضَ الهومسان وبدأ يخوضُ طريقَه فيها. كانت قناةً عريضةً وطويلةً. من هُناك قرّرَ أن يستكشفَ القُطبَ الجنوبي، فمضى يتابعُ مسيرتَه الطويلة والإنهاكُ يأخذُ مِنه كلّ مأخَذٍ مع مَطلعِ كلّ يومٍ جديدٍ، لأنّ زادَه وماءَه قَد نَفدا، وزيادةً على سوءِ حظِّه عَضّه دبٌّ قُطبي في ساقِه.

أخيراً وصلَت قناةُ الماءِ إلى نهايتها، حيثُ اختفَت في باطِنِ الأرضِ، ووجدَ الهومسان نفسَه وحيدًا في القُطب الجنوبي.

كانَ يقفُ في المُستنقع.

وكانَ ذلك المُستنقعُ رماديًا وداكِنَ الخُضرة، مُنقّطًا بِبِركٍ سوداءَ لامِعة. وفي جميعِ الأنحاءِ نمَت أكوامٌ من العشبِ القُطني كأنّها الثّلجُ، وعبقَ الهواءُ برائحةِ عُفونةٍ نفّاذة.

-«المُستنقعُ مَحظورٌ،» فكّر الهومسان بصوتٍ عالٍ. «محظورٌ على الهومسان الصّغارِ، أمّا الكِبار فلا يقصدونَه أبدًا. وأنا الوحيدُ الذي يعرفُ سببَ خُطورتهِ. هَذا هو المكانُ الذي تسلكُه عربةُ الشّبحِ وتَطوي فيه الأرضَ بعجَلاتِها الهائلة والثّقيلةِ. في وسعِ المرءِ أن يسمعَها تُقعقِعُ من بَعيد، لكنّ أحدًا لم يرَ قطّ في يومٍ سائقَها...

-«أوه، لا!» قاطَع الهومسان نفسَه. شعرَ فجأةً بالبردِ والخوفِ يَسريان فيهِ من بَطنه إلى رأسِه. قبلَ لحظةٍ لم يكُن لعربةِ الشّبحِ وجودٌ. لا أحدَ سمعَ عنها مُطلقًا، لولا أنّه ارتأى أن يَستنبِطها من بناتِ أفكارِهِ، فأصبحَت هناكَ في مكانٍ بعيدٍ، بعيدٍ جدًا، تنتظرُ حلولَ الظّلامِ لِتبدأ في التّدحرجِ قُدمًا.

-«أظنُّ،» قالَ الهومسان، «بَل أُفضّل أن أعتقدَ أنّني هومسان بحثَ وفتشَ عن بيته على مدى عشرِ سَنوات. والآن هَذا الهومسان ينتابُه شعورٌ مُفاجئ بأنَّ بيتَه باتَ في مكانٍ ما جدُّ قريبٍ.»

تشمّم طريقَه بحثًا عن الاتجاهِ الصّحيحِ وانطلَق. وبَينما هو يَمشي فكّرَ قليلاً بأفاعِي الطّين والفطرياتِ الحَيّة التي تُقبلُ زاحِفةً نحوَ المرءِ، فكّرَ فيها إلى أن أصبحَت هناكَ وبَدأت تتكاثَر وسطَ الأشنةِ.

-«هذه الأشياءُ يمكِن أن تبتلعَ الشّقيقَ الرّضيعَ في غَمضةِ عينٍ،» فكّر بحزنٍ.




«وربّما فعلَت هَذا الآن. هي في كلّ مكانٍ. وأنا أخشَى من الأسَوأ. لكن ما زالَ هناكَ أملٌ، إذ يمكنُ أن تنقذَه بعثةُ إغاثةٍ.»

بَدأ يَجري.

-«يا حَسرتي على شَقيقي الرّضيعِ المسكينِ،» فكّر الهومسان. «صغيرٌ جدًّا وسخيفٌ جدًّا. إذا ابتلعتهُ أفَاعي الطّينِ لن يكونَ لَدي بعدَ الآن شقيقٌ رضيعٌ وحِينها

أصبحُ أنا أصغرَ فَردٍ في العائلةِ.»

نشجَ وركضَ، نضحَ رأسُه بالعرقِ من شدّةِ الخوفِ، أقبلَ يقطعُ الباحةَ مُندفعًا، تجاوز سقيفةَ الخشبِ، اِرتقى الدّرجَ الأمامي وهو يصيحُ بأعلَى صوتِه: «ماما! بابا! لقَد التهمَت الأفعَى أخي!»

كانت أمُّ الهومسان ضخمةً ومَهمومةً، كانت دائمًا مهمومةً. قفزَت واقفةً على قدميها وهي تصيحُ فسقطَت البازلاء من مِئزرِها، وتبعثَرت في جميع أنحاءِ الأرضية. «مَاذا؟ مَاذا؟ مَاذا تَقول؟ أينَ شقيقُكَ الرّضيع؟ ألَم تهتمّ بهِ؟»

-«أوه،» أجابَ الهومسان بشيءٍ من الهدوءِ، «سقطَ في حفرةِ طينٍ في المُستنقعِ. وعلى الفورِ تقريبًا خرجَت أفعَى طينٍ والتفّت حولَ كرشهِ المُكتَنزة وعضّت أنفَه. نعَم، ارتبكتُ كثيراً، ولكن مَاذا يمكنُ أن يفعلَ المرءُ؟ هناكَ أفاعِي طِين أكثَر بكثيرٍ من الأشقّاءِ الرُّضّع.»

-«أفعَى؟» زعقَت ماما هومسان.



لكن بابا هومسان قالَ: «على رِسْلكِ. هو يَروي الأكاذيبَ ثانيةً. تَذكّري كلامي.» وبسرعةٍ نظرَ الأبُ من النّافذةِ لئلا ينهَشهُ القلقُ، ورأى أنَّ الشّقيقَ الرّضيعَ يجلسُ في الباحةِ ومُنهمكًا في أكلِ الرّملِ.

–«كَم مَرّة أخبرتُكَ أنَّ عليكَ ألّا تخترعَ القِصصَ،» قالَ بابا هومسان، وماما هومسان بكَت قليلاً ثمّ انبرَت تسأل: «ألا يجبُ أن ينالَ صفعةً على قَفاه؟»

–«مُمكن،» قالَ بابا هومسان، «لكنني لا أريدُ أن أفعلَ ذلك في حالِ اعترفَ أنَّ الكذبَ بغيضٌ.»

–«أنا ما كذبتُ قطّ،» قالَ الهومسان.

–«أخبرتَنا أنَّ شقيقكَ قَد ابتلعَته أفعَى. والحقيقةُ أنَّ شيئًا لم يبتلعْهُ،» وضّحَ بابا هومسان.

–«هذا رائِعٌ، أليسَ كذلك؟» قالَ الهومسان. «ألا تشعرُ بالسرور لأنّه بخيرٍ؟ أنا في مُنتهى السّرورِ والارتياحِ. أفاعِي الطّينِ تلك يمكنُ أن تبتلعَ أيّ مخلوقٍ في لحظةٍ كما تعلَم. ولا تُبقي منهُ شيئًا أبدًا، لا شيءَ سوى الخرابِ والظّلامِ وضَحك الضّباعِ الآتي من بعيدٍ.»

–«رجاءً،» توسّلت الأم. «رجاءً.»

–«إنَّ كلَّ ما يَنتهي على خيرٍ هو خيرٌ،» حسمَ الهومسان القضيةَ بابتهاجٍ. «ألَدينا حلوى الليلةَ؟»

عند هَذا الحدّ أصبحَ بابا هومسان غاضِبًا لِلغايةِ وقال: «لا حَلوى لكَ يا وَلدي. ولن تحصلَ على العشاءِ أبدًا إلى أن تستوعِبَ أنَّ الكذبَ لا يجوزُ.»

–«طبعًا لا،» أقرَّ الهومسان بدهشةٍ. «هَذا تصرّفٌ سيئ.»

–«هَا أنتَ تَرى كَيف هي الحال معهُ،» قالت ماما هومسان لبابا هومسان.

«اِسمح لهُ أن يتناولَ عشاءَه؛ فهو لا يستوعِبُ هَذا أبدًا.»

-«لا،» اِعترضَ بابا هومسان. «قلتُ لا عشاءَ لهُ، يَعني لا عشاءَ لهُ.»

لأنّ هَذا الأبُ المسكينُ رأى أنّ اِبنَه الهومسان لن يثقَ به ثانيةً في المستقبلِ إذا تراجعَ عن قرارِه.

وهكذا كانَ لا بُدَّ من أن ينامَ الهومسان مع غروبِ الشّمسِ، وهو يُعاني من مَشاعِر شَديدةِ المَرارة تجاهَ أمّه وأبيهِ. سبقَ أن عامَلاه بطبيعةِ الحالِ على نحوٍ صارمٍ في عديدٍ من الأوقاتِ، إنّما لم يَبلغا هَذه الدّرجةَ من السّخفِ. قرّرَ الهومسان الرّحيلَ. لا لِيعاقِبهما، بَل فقَط لأنّه شعرَ فجأةً أنَّه قد سَئِم كثيراً منهما، ومن عَجزِهما عن استيعابِ ما هو مهمٌّ وما هو خَطرٌ.

هُما بكلّ بساطةٍ قد رسَما خَطًّا واضحًا وفاصلاً بين الأشياءِ، وأعلماهُ أن على أحدِ جانِبي الخَطِّ يكمنُ كلّ ما هو مَقبولٌ ومفيدٌ، وعلى الجانبِ الآخَر كلّ شيءٍ هو مُختلَق ولا فائدةَ منهُ.

-«بِودّي أن أراهُما وجهًا لوجهٍ مع الأيتشامب،» غمغَم الهومسان بينَه وبين نفسهِ وهو ينزلُ الدّرجَ ويشقُّ طريقَه في الحديقةِ خلسةً.

-«هما صِدقًا سَيدهشانِ! أو ربّما أفعَى طينٍ. يُمكنني في يومٍ ما أن أرسلَ لهُما واحدةً في صندوقٍ بغطاءٍ زُجاجي لأنّني لا أرغبُ في أن تبتلعَهما الأفعَى. ليسَ فعلاً.»

يمّمَ الهومسان المُستنقعَ المحظورَ، لأنّه أرادَ أن يثبتَ لِنفسهِ استقلالَه. كان لونُ المُستنقع قد تحوّلَ إلى أزرَق، بَل أسودَ تقريبًا، واصطبَغت السّماءُ بلونٍ أخضَر. وعِند الأفُق لاحَت بقايا شعاعٍ أصفَر سَنِيّ خلّفَته الشّمسُ الغارِبةُ، جعلَ المُستنقعَ يَبدو رهيبًا في اتساعِه ووحشتِه.

-«طبعًا أنا لا أكذبُ،» قالَ الهومسان ومضَى بخُطى مُتثاقِلة. «هَذا حَقيقي كلّه. العَدوُّ والأيتشامب وأفاعِي الطّينِ وعَربةُ الشّبحِ. كلّ هَذه الأشياءِ حَقيقيةٌ كجِيراننا والبُستاني والدّجاجِ ودرّاجتي الصّغيرة.»

ثمّ وقفَ الهومسان بلا حراكٍ واستمعَ.

بعيدًا، في مكانٍ ما بَدأت عربةُ الشّبحِ تتدحرجُ على الأرضِ، مُرسلةً شَراراتٍ حمراءَ فَوق الخلنج، صَرّت وقَعقَعت واستجمَعت سُرعتها.

-«ما كانَ يجدرُ بكَ أن تخترعَها من البدايةِ،» قالَ الهومسان لنفسِه. «إنّها قادمةٌ الآنَ. اِركُض!»

انحنَت خصلاتُ العشبِ وانزلَقت تحتَ قَدميه، حدَجتهُ حُفرُ الماءِ السّوداءِ كما لَو أنّها عيونٌ كبيرةٌ مُنبثقةٌ من بين نَباتات البَرديّ، وأمكَنه أن يَحسَّ بالطّينِ يُسحقُ بين أصابعِ قَدميه.

-«يجبُ ألّا تفكّرَ في أفاعِي الطّينِ،» قالَ الهومسان، وبالتّالي فكّرَ فيها بقوّةٍ ووضوحٍ، وجاءَت تلك الأفاعِي تزحفُ خارجةً من جُحورها في الحالِ وهي تلعقُ شَواربها.

-«أتمنّى لَو أنّني مِثل أخي الرّضيعِ السّمينِ!» ناحَ الهومسان بيأسٍ. «هو لا يهمُّه إلّا بَطنُه، ويَحشو جوفَهُ بالرّملِ والتّرابِ. ومرةً حاولَ أن يلتهمَ بالونَه. ولَو نجحَ لَفقدناه.»

سحرَت هَذه الفكرةُ الهومسان إلى درجةِ أنّه توقّفَ عن الجَري. شقيقٌ رضيعٌ سمينٌ يرتفعُ عاليًا في الهواءِ، سَاقاه تتأرجحانِ بلا حَولٍ ولا قُوّةٍ، وخيطُ البالونِ يتدلّى من فمهِ...

أوه، عجبًا!



عندَ طرفِ المُستنقع لمحَ بصيصَ ضوءٍ. لم يكن عربةَ الشّبحِ؛ بل نافِذةً صَغيرة مُربّعة تظهَر من خِلالها شُعلة مصباحٍ تَحترقُ بتؤدةٍ.

–«عليكَ أن تذهبَ إلى هناك،» حدّثَ الهومسان نفسَه. «امِشِ، لا تركُض، لأنَّ الركضَ يصيبكَ بالخَوف. ولا تُفكّر، تقدّم فقَط.»

كانَ بيتًا مُستديراً، ما يَعني أنّه على الأرجحِ يعودُ إلى هَذه الميمبل أو تلك. دقّ الهومسان البابَ. دقّ عدّةَ مرات، ولمّا لم يأت أحدٌ ليفتحَ لهُ، فتحَه بنفسِه ودخَل.

كانَ جوُّ البيتِ دافئًا ولطيفًا. على عتبةِ النّافِذة يستقرُّ مِصباحٌ جعلَ الليلَ في الخارجِ أسودَ كالفحمِ. وفي مكانٍ ما ساعةٌ تُتكتِك، وعلى سطح خزانةٍ كبيرةٍ رأى ميمبل في غايةِ الصّغرِ مُنبطحةً على بطنِها تَرنو إليه.

–«مرحبًا،» حيّاها الهومسان. «أنقذتُ نفسي في آخرِ لحظةٍ من أفاعِي الطّينِ والفطرِ الحَيّ! لا يُمكنكِ أن تتخيّلي!»



تأمّلتهُ الميمبل الصّغيرةُ بصمتٍ وفي عَينيها نظرةُ انتقادٍ. ثمّ قالت: «أنا ماي. سبقَ أن رأيتُكَ. كنتَ ترعَى شقيقًا لكَ صغيراً وسمينًا، وتغمغمُ بينكَ وبين نفسكَ طوالَ الوقتِ، وتلوّحُ بكفّيكَ هنا وهناك. ها.. ها..»

–«لا عليكِ،» أجابَ الهومسان. «لماذا تَجلسين على سطح هَذه الخزانةِ؟ هَذا سخيفٌ.»

–«لِبعضِ النّاسِ قد يَبدو سخيفًا،» تشدّقت ماي الصّغيرة. «أمّا أنا فأعتبرُه أمَلي الوَحيد لأنجوَ من المصيرِ المُروّع.»

اتّكأت على الحافةِ وهمسَت: «الفطرُ الحَيّ أصبحَ في الرّدهةِ.»

–«ها؟» شهقَ الهومسان.

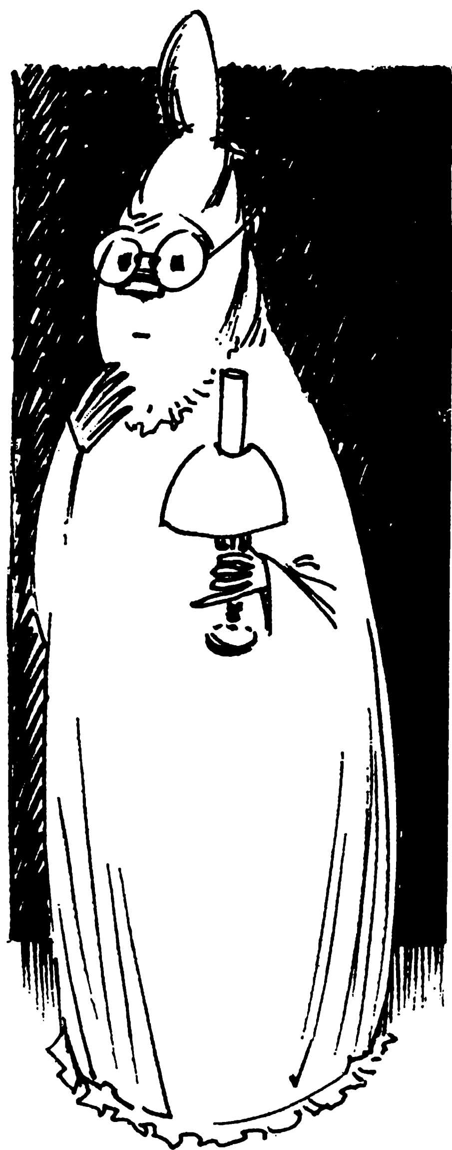
–«هُنا في الأعلَى أرى أنّ الفطرَ الحَيّ يقبعُ خلفَ البابِ تمامًا،» تابعَت ماي الصّغيرة. «إنَّه ينتظرُ. يجدرُ بكَ أن تلفَّ ممسحةَ الأرجلِ تلك وتحشرَها في شقِّ البابِ وإلا لن يلبثَ الفطرُ أن يتفلطحَ ويبدأ زحفَه من الأسفلِ.»

–«لا يمكنُ أن يكونَ هَذا صحيحًا،» اعترضَ الهومسان وهو يشعرُ بكتلةٍ تستقرُّ في حلقِه. «هَذا الفطرُ لم يكُن له وجودٌ في الصّباحِ. لقد اخترعتُه.»

–«فعلتَ، نعَم صَحيح، ألَم تفعَل؟» قالت ماي الصّغيرة بغطرسة. «النّوعُ الدّبقُ؟ النّوعُ الذي يَنمو إلى ما يشبهُ البطانيةَ السّميكةَ ويلتصقُ بالنّاسِ؟»

–«لا أدري،» همهَم الهومسان وهو يرتعشُ قليلاً. «لا أدري...»

–«جدّتي اكتسَت به من رأسِها إلى أخمصِ قَدميها،» قالت ماي الصّغيرة. «هي في الرّدهة. أو بالأحرَى ما تبقّى مِنها. تحوّلت إلى كُتلةٍ خضراءَ ضخمةٍ. شارِباها فقط لا يكفّان عن النّتوءِ من أحد الأطرافِ. يجدرُ بكَ أن تدفعَ تلك السّجادةَ نَحو البَابِ



الآخَر. هَذا قد ينفَع، مع أنّني لستُ مُتأكّدةً.»

أخذَ قلبُ الهومسان يخفقُ بِشدّةٍ، وشعرَ أن كَفّيه قد تَيبّسا بحيثُ وجدَ صعوبةً بالغةً في دَحرجة السّجادةِ. في مكانٍ ما من البيتِ راحَت السّاعةُ تُتَكتك ببطءٍ.

«–ذاكَ هو الصوتُ الذي يُصدره الفطرُ عندما ينتفخُ ويَتضخّم،» وضّحت ماي الصّغيرة. «يكبرُ ويكبرُ إلى أن يخلعَ الأبوابَ، وحينئذٍ يصبحُ حُرًا ليزحفَ عليكَ.»

–«اسمحي لي أن أصعدَ إلى سطحِ الخزانةِ!» صاحَ الهومسان.

–«آسِفة، لا مُتّسعَ هنا،» أعلنَت ماي الصّغيرة.

ثمّ سمِعا طرقًا على البابِ الخارجي.

–«هَذا طريفٌ،» قالت ماي الصّغيرة وتنهّدَت. «طريفٌ أن يهتمَّ الفطرُ الحَيُّ بقرعِ البابِ، في حين أنّه يستطيعُ الدّخولَ مَتى شاءَ...»

اندفَع الهومسان نحوَ الخزانةِ وحاولَ تسلُّقَها. تكرّرَ القرعُ على البابِ.

–«يا ماي! هناك شخصٌ عند البابِ!» نادى صوتٌ من غرفةٍ داخليةٍ.

–«نعَم، سمعتُ، سمعتُ، سمعتُ،» صاحَت ماي الصّغيرة. «تلك جدّتي،» قالت للهومسان. «غريبٌ أنّها ما زالت قادرةً على الكلامِ.»

حدّقَ الهومسان في بابِ الرّدهةِ. وما لبثَ البابُ أن فُتحَ ببطءٍ، فُتحَ على فرجةٍ سوداءَ. فأطلقَ صرخةً وتدحرجَ مُختبئًا تحت الأريكةِ.

–«يا ماي،» قالت الجدّة، «أَلَم أَطلب منكِ أن تَردّي على الطّارقِ؟ ولماذا لففتِ السّجادةَ هَكذا؟ ولِماذا لا يَتركني النّاسُ أبدًا أغفو بلا إزعاجٍ؟»

كانَت الجدّةُ مُسنّةً جدًّا وغاضِبة جدًّا، تلبسُ قميصَ نومٍ أبيضَ فضفاضًا. مضَت إلى البابِ وفتحَته وقالت: «مساءُ الخيرِ.»

–«مساءُ الخيرِ،» قالَ بابا هومسان. «أنا آسفٌ جدًّا على إزعاجكِ في هَذه

السّاعةِ، لكنني أتساءلُ إن كنتِ قد رأيتِ وَلدي، وَلدي الأكبَر من أخيهِ الصّغيرِ...»

–«إنَّه تَحت الأريكةِ،» قالت ماي الصّغيرة.

–«يمكنكَ أن تخرجَ،» قالَ بابا هومسان. «لا أحدَ غاضِب منكَ.»

–«أوه، تَحت الأريكةِ. حسنًا،» قالت الجدّةُ بِشيء من الإعياءِ. «طبعًا لا بأسَ في أن يأتيَ الأحفادُ للزيارةِ، وبالتّأكيد تستطيعُ ماي الصّغيرة أن تدعوَ رفاقَ اللعب إلى هنا! لكنني أتمنّى لو أنّهم يلعبون في النّهارِ وليسَ في الليلِ.»

–«أنا آسفٌ جدًّا،» قالَ بابا هومسان بسرعةٍ. «في المرّةِ القادمةِ سيأتي صباحًا.»

زحفَ الهومسان خارجًا من تَحت الأريكةِ. لم يَنظر إلى ماي الصّغيرة ولا إلى جدّتِها. اتجَه مباشرةً نحو البابِ وخرجَ إلى الدّرجِ ثمّ الظّلامِ.

مشَى بابا هومسان إلى جانبه من غيرِ أن يقولَ شيئًا. شعرَ الهومسان أنَّه قد تعرّضَ إلى أذَى بالغٍ بحيثُ كادَت الدّموعُ تنفرُ من عَينيه.

–«بابا،» هتَف. «تلكَ البنتُ... أنتَ لن تصدّقَ أبدًا... أنا لن أعودَ إلى هناك ولا بعد ألفِ سَنةٍ،» تابعَ الهومسان بانفعالٍ بالغٍ. «تلاعَبت بي! اخترعَت قصصًا غريبةً! إنّها تثيرُ الاشمئزازَ بِأكاذيبها!»

–«أفهمُ ما تَعنيه،» قالَ بابا هومسان مُهدّئًا من رَوْع ابنهِ. «هَذه الأمور يمكنُ أن تكونَ مزعجةً جدًّا.»

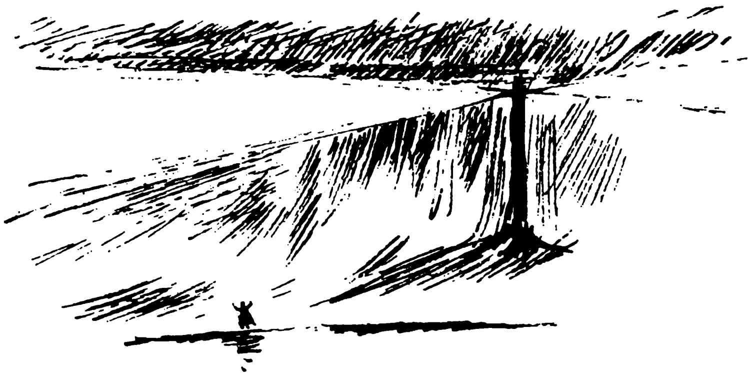
وهكذا عادا إلى البيت، وأكلا معًا الحلْوى المُتبقيّةَ من العشاءِ.





الفيليجونك

التي آمنَت بالكوارثِ



في يومٍ من الأيّامِ كانت هناك فيليجونك تغسلُ سجادتَها الكبيرةَ في البحرِ. فَركتها بالفُرشاةِ والصابونِ إلى شريطِها الأزرَق الأوّل، ثمّ انتظرَت الموجةَ السّابِعة لتأتيَ وتجرفَ الصابونَ عنها.

ثمّ عادَت وصَوْبنت وفركَت إلى الشّريطِ الأزرَق التّالي، بَينما الشّمسُ تُدفئ ظهرَها وهي واقفةٌ وساقاها النّحيلتان في الماءِ النّقيّ، تفركُ وتفركُ...

كانَ يومًا صيفيًا عليلاً وساكنًا، مناسبًا تمامًا لغسلِ السّجادِ. تتالَت الأمواجُ الوَئيدةُ النّاعِسة في التّدحرُج نحوَها لتساعدَها بالشّطفِ، وحولَ قُبّعتِها الحمراءِ طنَّت مجموعةُ من النَّحلات وقد افترضَن أنّها زهرةٌ.

-«لا تتجاهَلي هَذا،» فكّرت الفيليجونك بوجهٍ عابسٍ. «أعرفُ كيفَ هي الأمورُ. كلُّ شيءٍ يكون دائمًا مسالمًا هَكذا مباشرةً قبل حلولِ كارثةٍ.»

بلغَت الشَّريطَ الأزرقَ الأخيرَ، انتظرَت الموجةَ السّابعةَ لِتشطفَه، وبعدئذٍ سحبَت السّجادةَ خارجَ الماءِ.

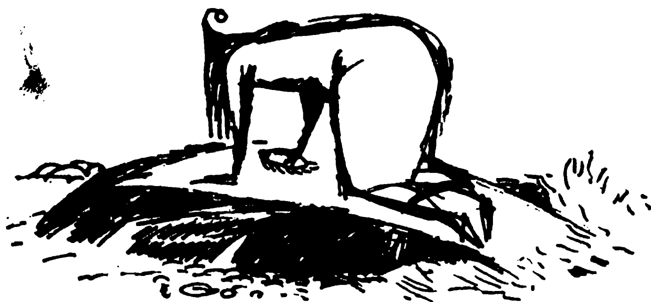
سطعَت صخرةٌ مَلساءُ بلونٍ أحمرَ تحت الماءِ المتموّجِ؛ وتراقصت انعكاساتُ الضّوءِ على أصابعِ قَدمي الفيليجونك العَشرة وطلَتْها بِلونٍ ذَهبي.

وقفَت وفكّرَت. قُبّعةٌ جديدةٌ بِلون برتقالي مُحمَرٍّ ربّما؟ أو يمكنُ أن أطرّزَ انعكاساتِ الضَّوء حولَ طرفِ القُبّعة القديمةِ؟ بالذّهبِ؟ لكن طبعًا لن تبدوَ مِثل انعكاساتِ الضَّوء لأنّها لن تتحرّكَ. ثمّ، ما حاجَتي إلى قُبّعة جديدةٍ عندما ينفجرُ الخطرُ؟ في هَذه الحال لا بأسَ من أن أهلكَ بقُبّعتي القديمةِ...

جرَّت الفيليجونك سجادتَها إلى اليابسةِ وخبَطتها على صخرةٍ، وبوجهٍ مُتجهّمٍ وقفَت عليها وداسَتها بقُوّةٍ لتطردَ الماءَ منها.

كانَ الجوُّ لطيفًا إلى حدٍّ بعيد، غيْر طبيعي بتاتًا. شيءٌ أو آخَر لا بُدَّ من أن يحدثَ. في مكانٍ ما تحت الأفقِ شيءٌ قاتمٌ وفظيعٌ كانَ يترصّدُ، يزدادُ استفحالاً، يزدادُ اقترابًا... يتقدّمُ، يتقدّمُ أسرعَ فأسرعَ...

-«المرءُ لا يكاد يعرفُ ما هو،» همسَت الفيليجونك لِنفسِها.



بدأ قلبُها يخفقُ وشعرَت بقشعريرةٍ تَسري في ظهرِها، التفَتت بعصبيةٍ كما لَو أنَّ هناك عدوًّا يقف وراءَها. إلّا أنَّ لألاءَ البحرِ بقي على حالِه السّابق، وواصلَت انعكاساتُ الضَّوء تراقُصها على الأرض بِاختِلاجات لَعوب، وريحُ الصّيفِ الفاترة داعبَت أنفَها برفقٍ.

لكنّ كلّ ذلك كانَ أبعدَ من أن يريحَ فيليجونك مُصابَة بالذّعرِ من غيْر أن تعرفَ السّببَ. بِكفّين مُرتعِشتين نشرَت سجادتَها لتجفَّ، ولَمّت صابونَها وفُرشاتها ومضَت مسرعةً إلى البيتِ لتضعَ إبريقَ الشّاي على النّارِ، فقَد وعدَتها غافسي أن تزورها في السّاعةِ الخامِسة.

أقامَت الفيليجونك في بيتٍ كبيرٍ إنّما لا يمكنُ القَول إنّه جميلٌ. شخصٌ ما أراد التّخلّصَ من طِلاء قديمٍ فدهَنه من الخارجِ بلونٍ أخضَر داكِن وطلَى داخِله بدهانٍ بُنيّ. استأجرَته الفيليجونك غيْر مفروشٍ من هيمْيُولِن. وذاك الهيمْيُولِن أكّد لها أنّ جدّتَها اعتادت أن تستأجرَه صيفًا في شبابِها. وبما أنَّ الفيليجونك كانت متعلّقةً كثيراً بأهلِها وأنسبائِها، قرّرت فوراً أن تُشرّفَ ذِكرى جدّتها بالسّكنِ في البيت نفسِه.

في أوّل مساءٍ لها هناكَ جلسَت على عتبةِ البيتِ وفكّرت في جدّتِها التي لا بُدَّ من أنّها كانت تختلفُ عنها أيّما اختلاف في صِباها. كَم من الغريبِ أن ترغبَ فيليجونك أصيلةٌ تمتلكُ حسًّا حقيقيًا بجمالِ الطّبيعة في الإقامةِ عند هَذا الشّاطئ الرّملي الكئيبِ! لا حديقةَ هناك لزراعةِ الخَوخ فيها! ولا أصغرَ شجرةٍ مُورقة أو أجمةٍ صغيرةٍ يستطيعُ المرءُ أن يحوّلَها إلى عَريشةٍ. بَل ولا أيَّ منظرٍ أنيسٍ!

تنهّدَت الفيليجونك وألقَت نظرةً بائسةً على بحرِ المساء وهو يشذّبُ الشّاطئَ المديدَ بأمواجِه. رنَت إلى الماء الأخضَر والرّمل الأبيَض وأعشابِ البحر الحمراء اليابِسة. مُحيطٌ مناسبٌ تمامًا لكارثة؛ ولا بُقعة واحِدة فيه آمنَة.

بعدَ ذلك، اكتشفَت الفيليجونك طبعًا أنّها قَد أخطأت، أنّها قَد انتقلَت بلا داعٍ إلى هَذا البيتِ المروّع القائم عند هَذا الشّاطئ المروّع. اكتشفَت أنَّ جدّتَها أقامَت في مكانٍ آخر. ولكن، هَذه هي الحياةُ!

في تلكَ الآونةِ كانت قد كتبَت رسائلَ عن بيتِها الصّيفي لجميعِ أقارِبها، ولِذا لم تعتقِد أنَّه من اللائِق أن تغيّر خطَطَها.

فَهُم ربّما يَعتبرونها سخيفةً نوعًا ما.

وهَكذا أغلقَت الفيليجونك بابَها وحاولَت أن تحسّنَ من حالِ البيتِ. هَذا لم يَكُن سهلاً. كانت السّقوفُ عاليةً جدًّا بحيث بَدت زواياها تعجُّ بالظّلال دائمًا. النّوافذُ كبيرةٌ ومهيبةٌ، ولا يمكنُ أن تمنَحها أيّ ستائِر حَريريةٍ مَظهرًا ودودًا. تلكَ لم تكُن نوافِذ لِينظرَ مِنها المرءُ إلى الخارجِ، بَل لينظرَ منها إلى الدّاخلِ، والفيليجونك لَم تستلطِف هَذه الفِكرةَ.

حاولَت أن ترتّبَ زَوايا مُريحةً، لولا أنّها لم تصبِح مريحةً قطّ. بَدا أثاثُها ضائِعًا. الكراسي انزوَت وأوَت إلى الطّاولة، الأريكةُ تكوّمَت عندَ الجدارِ، والبُقعُ المنيرةُ حولَ المصابيحِ كانَت مُغمّمةً مثلَ ضَوءٍ وامضٍ في غابةٍ مظلمةٍ.

ككلّ جماعةِ الفيليجونك امتلكَت الكثيرَ من تُحفِ الزّينة. مَرايا صَغيرةٌ، صورٌ بإطارات من القَطيفةِ الحَمراءِ والأصدافِ الصّغيرةِ، قِططٌ خزفيةٌ، وأشكالُ هِيمْيُولن يَرتاحون على قطعٍ مِن الكروشِيه، حِكَمٌ لطيفةٌ مُطرّزةٌ بالحريرِ أو خُيوط الفضةِ، مَزهريات مُنمنَمة وأَغطيةُ أباريق شَاي على هَيئة الميمبل. حسنًا، كانت تمتلكُ مختلفَ أنواعِ الأشياءِ التي تجعلُ الحياةَ أهنأ وأقلّ خطرًا وأكثرَ إشاعةً للراحة.

لكن هَذه الجَماليات المُحبّبة فقدَت رَوْنقها وفقدَت مَعناها في ذلك البيتِ الكئيبِ المُجاور للبحرِ. نقلَتها من طاولةٍ إلى رفٍّ جَانبي، ومن رفٍّ جَانبي إلى عَتبة نافذةٍ، ولَم تَبْد مُلائمةً أينما وُضِعَت.

وها هِي هُناك في مكانِها الأوّلِ ثانيةً، تَبدو كحالةٍ مَيؤوسٍ منها كالسّابقِ.

توقّفَت الفيليجونك عندَ الباب ونظرَت إلى مقتنياتِها لِتُهدئَ من رَوْعِ نفسِها.

إلّا أنَّ تلكَ الحاجيات لاحَت بِلا حَوْلٍ ولا قُوّةٍ مِثلها تمامًا. مضَت إلى المطبخِ ووضعَت الصّابون وفُرشاة الفَرك على المغسلةِ. ثمّ أشعلَت النّارَ تحت إبريقِ الشّاي وأخرجَت أفضلَ فَناجينها. الفناجينُ ذاتُ الأطرافِ المُذهبة. رفعَت صحَن الكيك، وبمهارةٍ نفخت عليه لتنحّي بعضَ الفُتاتِ التي فيه، ثمّ وضعَت قالبَ الكيك المُثلّج فوقَ بقيّة الفُتاتِ لِتثيرَ إعجابَ غافسي.

لم تكُن غافسي تضيفُ الحليبَ إلى الشّاي، وعلى الرّغم من ذلك وضعَت الفيليجونك دورقَ جدّتها الفِضي الصّغيرِ الخاصّ بالحليبِ على الصّينيةِ. أمّا مُكعّبات السُّكر فَرَصَّتْها في سلّةٍ صغيرة وفاخِرة، مقابِضها مَكسوّة بقشورِ اللؤلؤ.

بينما انهمكَت تحضّرُ صينيةَ الشّاي بدَت في مُنتهَى الهدوءِ، إذ أفلحَت في سدِّ الطّريقِ على أفكارِها المُتعلّقةِ بالكوارثِ. مكتبة ياسمين

كانَ من المؤسِف بلا رَيب ألّا تتوافَر الأزهارُ اليانعة في هَذا المكان المَنحوس. نباتاتُ الشّاطئ جميعُها كانَت شُجيرات مُتشابِكة وشائِكة، وأزهارُها لا تُناسب غرفةَ الجلوسِ. وجّهَت الفيليجونك لمزهريةِ الطّاولةِ وما فيها من شُجيرةٍ شائِكة وكزةً غاضِبة، وتوجَّهَت بعدئذٍ إلى النّافذةِ لتتفقّدَ غافسي.

ثمّ فكّرت بسرعةٍ: «لا، لا، لن أترقّبَ من النّافذةِ حضورَها. سأنتظرُ إلى أن تقرعَ البابَ. حينها فقَط أهرعُ لأفتحَه وسنكونُ مسرورتَين جدًّا بلقائِنا واجتماعيتَين ونُجري معًا دردشةً لطيفةً... إذا وقفتُ أترقّبُ ظهورَها الآن ربّما أرى أنَّ الشّاطئ مقفرٌ تمامًا من هنا إلى المنارةِ. أو ربّما أرى طيفًا صغيراً يتقدّم، وأنا لا أحبُّ مراقبةَ الأشياءِ وهي تقتربُ وتقتربُ... وستكون الحالُ أسوأ، نعَم، ستكون أسوأ إذا بدأ الطّيفُ الصغيرُ يصغرُ ويذهبُ في الاتجاهِ الآخَر...

أخذَت الفيليجونك ترتعشُ. «ماذا أصابَني؟» فكّرت. «يجبُ ألّا أتحدّث عن


Tove

هَذا مع غافسي. هي فعلاً ليسَت الشّخصَ الذي أُفضّل بأي حالٍ الدّردشةَ معَه، إنّما في الواقِع أنا لا أعرفُ أحدًا غيرَها في الجِوار.»

كانَ هناك قرعٌ على البابِ. مضَت الفيليجونك مسرعةً إلى الرّدهةِ وانبَرت تُثرثرُ وهي في طريقِها لتفتحَ.

-«... ويا لَهُ من جوّ رائع،» هتفَت. «والبحرُ، أَنظرتِ إلى البحرِ؟ كَم هو أزرَق اليَوم، وكَم يبدو ساكِنًا، لا مَوْجَة هائِجة واحِدة! كيفَ حالُكِ، حسنًا، أراكِ فائِقة التّألُّق، كما تخيّلتكِ بالضّبط... إنّما هو كلّ ذلك طبعًا، العيشُ هَكذا، أعني في حضنِ الطّبيعةِ وما إلى ذلك، هَذا يضعُ الأمور في مسارِها الصّحيح، أليسَ كذلك؟»

-«إنّها أكثَر تشوّشًا من المُعتاد،» فكّرَت غافسي في سرّها وهي تخلعُ قُفّازها (لأنّ غافسي كانَت سيدةً راقِية)، وبصوتٍ عالٍ قالت: «تمامًا. أنتِ مُحقّة كلّ الحقّ يا سَيدة فيليجونك.»

جلسَتا إلى الطّاولةِ، وسَعدَت الفيليجونك كثيراً بالرّفقةِ إلى درجةِ أنّها انبرَت تثرثرُ بِهراءٍ مُطلق، ودلَقت الشّاي على مفرشِ الطّاولة.

قالت غافسي شيئًا لطيفًا عن الكيك وعن سلّةِ السُّكر وكلّ ما استطاعَت التّفكيرَ فيه، أمّا عن المزهريةِ فلَم تقُل شيئًا طبعًا. كانت غافسي سيدةً مهذّبةً وحسنةَ التّربيةِ. وأيّ شخصٍ يمكنه أن يرى أنَّ تلك الشُّجيرة البرّية الغاضِبة لا تناسِب عدّةِ الشّاي.

بعد فترةٍ توقّفت الفيليجونك عن الهذرِ، وبما أنَّ غافسي لم تجِد ما تقولُه، رانَ عليهما الصّمت.

ثمّ غيّمَت الشّمس وبَدا مفرشُ الطّاولةِ فجأةً رماديًا. النّوافذ الكبيرةُ المهيبةُ أظهرَت كتلةً من السُّحب القاتِمة، واستطاعَت السيّدتان أن تسمَعا خشخشةَ ريحٍ

مُغايرة تُقبلُ من البحرِ. خشخشةٌ بَعيدة وخافِتة، ليست أكثَر من الهَمس.

-«لاحظتُ أنّكِ أخرجتِ سجادتكِ لغسِلها يا سيّدة فيليجونك،» قالت غافسي بأدبٍ جَمّ.

-«نعم، يُقالُ إنَّ ماءَ البحر هو الشّيء الأفضلُ للسّجادِ،» أجابت الفيليجونك. «الألوانُ لا تبهتُ أبدًا، وهناك أيضًا تلك الرّائحةُ الرّائعةُ...»

-«يجبُ أن أجعلَ غافسي تَستوعِبني،» فكّرَت. «يجبُ أن أخبرَ شخصًا ما أنّي خائِفة، شخصًا ما يمكنُ أن يجيبَني: ولكن طبعًا، أفهمُ تمامًا أنّكِ خائفة. أو: حقًّا، ماذا هناك بِحقِّ الله لِتخافي مِنه؟ وفي يومٍ صَيفي بديعٍ كاليومِ؟ أودُّ أن أسمعَ أيّ شيءٍ، أيّ شيءٍ على الإطلاق.»

-«الكيك وصفةُ جدَّتي،» قالت الفيليجونك. ثمّ انحنَت إلى الأمامِ وهمسَت: «هَذا الهدوءُ ليسَ طَبيعيًا. أراه يعني أنَّ شيئًا فظيعًا في طريقهِ إلى الحُدوث. صدِّقيني يا غافسي العزيزة، نحن صغارٌ جدًّا جدًّا، وعَديمو الأهمِيةِ، وكذلك كيك الشّاي والسّجاجيد وكلّ تلك الأشياءِ كما تعلَمين، ومع ذلك ما زالت أشياءً مهمّةً لنا، إنّما هي دائمًا مُهدّدة بشيءٍ قاسٍ لا يرحمُ...»

-«أوه،» هتفَت غافسي وقد اعتراها الارتباكُ.

-«نعَم، بشيءٍ عديم الرّحمةِ،» تابعَت الفيليجونك بأنفاسٍ متقطّعة قليلاً. «بشيءٍ لا يستطيعُ المرءُ أن يطلبَ منه شيئًا، أو يجادلَه، أو يفهمَه، وهو بدورِه لا يخبرُ المرءَ شيئًا. شيءٌ يمكن أن نستشِفّه من وراءِ زجاجِ نافِذة مُعتم، يقتربُ من بعيدٍ من ناحيةِ الطّريقِ، أو من ناحيةِ البحرِ، يكبرُ ويكبرُ ويكبرُ ولكنّه لا يُظهِرُ نفسَه بوضوحٍ إلّا بعد فواتِ الأوان. أشَعرتِ به يا سيّدة غافسي؟ رجاءً أخبريني أنّكِ تستوعبينَ ما أقولُه!»



اصطبغَ وجهُ غافسي بحُمرة قانيةٍ وجلسَت تُدير سلّةَ السُّكر بيديْها وتتمنّى في سَريرتها لو أنّها ما جاءَت مطلقًا.

-«يمكنُ أن تأتيَ عواصِفُ مُفاجِئة في هَذا الوقت من السَّنةِ،» قالت أخيراً بحذَر.

أخلدَت الفيليجوك إلى الصمتِ مُحبَطةً. انتظرَت غافسي فترةً قصيرةً ثمّ أردفَت بنبرةٍ فيها شيءٌ من الغَيظ: «علّقتُ غسيلي الجمعةَ الماضِية، وصَدِّقيني هبّت الرّيحُ بغتةً بحيثُ وجدتُ أفضلَ بُيوت وَسائِدي عند البوابةِ. ما نوعُ الصّابونِ الذي تستعملينَه يا سيّدة فيليجونك؟»

-«لا أتذكّر،» أجابت الفيليجونك التي شعرَت فجأةً بالإعياءِ الشّديد لأنّ غافسي لم تُحاول استيعابَها. «أَترغبين في مزيدٍ من الشّاي؟»

-«لا شكرًا، لا مزيدَ من الشّاي،» قالت غافسي. «يا لَها من زيارةٍ لطيفةٍ، لكنها قصيرةٌ. أخشى أنّني مُضطرةٌ إلى المُضي في طريقي قَريبًا.»

-«نعَم، قالت الفيليجونك. «أرى هَذا.»

كانَ الظّلامُ قد بدأ يخيّمُ على البحرِ، والشّاطئ يغمغمُ بَينه وبين نفسِه. كانَ الوقتُ أبكرَ من أن يُضاءَ المصباحُ، إلا أنَّ الجوَّ بدا معتمًا أكثر من أن يكونَ مقبولاً. لاحَ أنفُ غافسي مُجعّدًا أكثرَ من ذي قبل، وفي وسعِ المرء أن يلاحظَ أنّها لا تشعرُ بالارتِياح. بَيد أنَّ الفيليجونك لم تشجّعها على المغادرةِ؛ لم تَقُل كلمةً واحِدة، واكتفَت بالجلوس ساكنةً، وتشاغَلت بتقطيعِ بعض الكيك المُثلّج إلى لُقَيمات.

-«هَذا مُفجعٌ،» فكّرَت غافسي، ثمّ تأبّطت حقيبتَها بهدوء. في تلك الأثناءِ رفعَت الرّيحُ الجنوبيةُ الغربيةُ صوتَها قليلاً.

-«كنتِ تتحدّثين عن الرّيح،» قالت الفيليجونك. «ريح تُطيّرُ غسيلَك. أما أنا فأتحدّثُ عن الأعاصيرِ، يا غافسي العزيزة، عن الزّوابع والعواصِف الرّملية، والدّواماتِ، وأمواجِ الفَيضانات التي تقتلعُ البيوتَ... وأكثَر من أيّ شيءٍ آخَر أنا أتحدّثُ عن نفسي وعن مخاوِفي، على الرّغم من عِلْمي أنَّ ذلك لم يحدُث، أعرفُ أنَّ كلّ شيءٍ سينتهي بشكلٍ سَيئ. أفكّرُ في هَذا طوالَ الوقت، حتّى وأنا أغسلُ سجادَتي. أتفهمينَ ما أعني؟ أَتشعرين مِثلما أشعرُ؟»

-«أَتراكِ جرّبتِ الخَلَّ؟» قالت غافسي وهي تحدّقُ في فنجانِ الشّاي. «تبقى الألوانُ ثابتةً إذا أضَفتِ القليل من الخَلِّ إلى ماء الشّطف.»

عند هَذا الحدّ اعترَى الغضبُ الفيليجونك، وهو شيءٌ غيْر عادي أبدًا. شعرَت

أنَّها تريدُ أن تتحدّى غافسي بطريقةٍ أو بأخرى. فاختارَت أولَ فكرةٍ راوَدتها. أشارت بيدٍ مُرتعشةٍ إلى الشُّجيرة المُروّعة في المزهريةِ وصاحَت: «انظُري! أليسَت جميلةً؟ إنّها الشّيءُ المِثالي المتناسقِ مع مَجموعتي من عدّةِ الشّاي!»

وغافسي كانت في الوقتِ نفسِه تماثِلها إعياءً وغضبًا، ولذلك انتفضَت واقفةً وأجابت: «ولا قليلاً! إنَّها كبيرةٌ وشائِكة ومُبهرجة؛ منظرُها نُحاسي ولا تنتمي بأي شكلٍ إلى طاولة الشّاي!»

ثمّ افترقَت السيّدتان وأغلقَت الفيليجونك بابَها وعادت إلى غرفةِ الجلوسِ.

شعرَت بالبُؤس وخَيبة الأملِ من جَلسة الشّاي. والشُّجيرةُ بقيَت على الطّاولةِ رَماديةً وشائِكةً ومُحمّلةً بأزهارٍ صغيرةٍ قانِية الحُمرة. فجأةً خطر على بالِ الفيليجونك أن ليست الشُّجيرة هي ما لا يُلائم عدّة الشّاي التي لديها، بل هي عدّة الشّاي التي لا تتلاءمُ مع أيّ شيءٍ.

وضعَت المزهريةَ على عَتبة النّافذة.

تبدّلَت حالُ البحرِ. غَدا رماديًا، والأمواجُ كشّرَت عن أنيابٍ بيضاءَ وراحت



تنهشُ الشّاطئ. أمّا السّماءُ فاصطبَغت بوهج وَردي وبدَت ثقيلةً.

وقفَت الفيليجونك أمامَ نافذتِها وقتًا طويلاً، تستمعُ إلى عَويل الرّيحِ المتصاعِد. ثمّ رنّ جرسُ الهاتِف.

-«أهَذه السيّدة فيليجونك؟» سألَ صوتُ غافسي بحذر.

-«طبعًا،» أجابَت الفيليجونك. «لا أحدَ غيْري يعيشُ هنا. أوَصلتِ إلى البيتِ بِسلام؟»

-«نعَم، وصلتُ بخيرٍ،» قالت غافسي. «هناك ريح قَويةٌ.» تابَعت ثمّ سكتَت برهة، وبعدئذٍ قالت بصوتٍ مُتودّدٍ: «يا سيّد فيليجونك، تلك الأشياءُ الفظيعةُ التي ذكَرتِها، أحدثَت معكِ كثيراً؟»

-«لا،» أجابَت الفيليجونك.

-«بعضَ المرّات إذًا؟»

-«حسنًا، لم تحدُث قطّ في الحقيقةِ،» ردّت الفيليجونك. «هَكذا أشعرُ فقَط.»

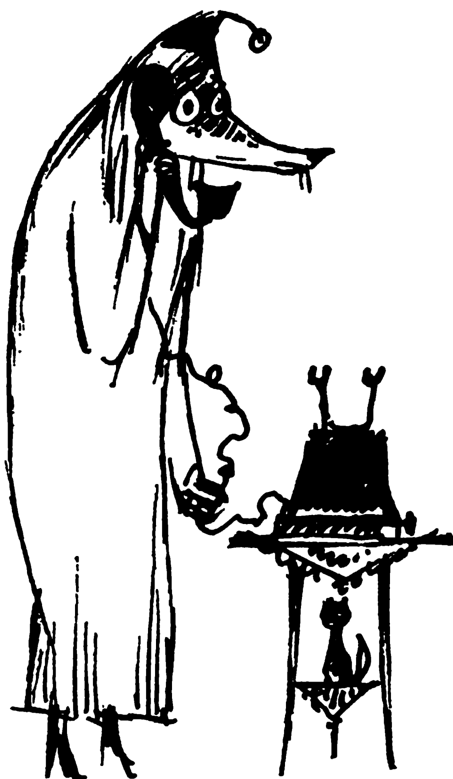
-«أوه،» هتفَت غافسي. «طيّب، أشكركِ على دَعوتِك لي. كانت زيارةً لطيفةً جدًّا. إذًا لا شيءَ على الإطلاق حدثَ معكِ؟»

-«لا،» قالت الفيليجونك. «لطيفٌ منكِ أن تتصلي بي. أتمنّى أن نلتقيَ أكثَر.»

-«وأنا كذلِك،» قالت غافسي وأنهَت المُكالمةَ.

جلست الفيليجونك تنظرُ إلى الهاتِف فترةً من الوقتِ. وشعرَت فجأةً بالبردِ.

-«نوافِذي تعتمُ ثانيةً،» فكّرَت. «يُمكنني أن أعلّقَ بعضَ البطانياتِ عليها. يُمكنني أن أعكسَ المَرايا وأجعلَها تواجِه الحائطَ.» لكنها لم تفعَل شيئًا. جلسَت تستمعُ إلى الرّيحِ التي بدأت تَعوي في المدخنةِ... تَعوي بصوتٍ لا يختلفُ كثيراً عن



عويلِ حيوانٍ صغيرٍ شريدٍ.

في الجِهة الجَنوبية بدأت شبكةُ صيد الهِمْيولِن تضربُ الحائطَ، لكن الفيليجونك لم تَجرؤ على الخروج لتُنزلها.

كانَ البيت يهتزّ اهتزازًا طفيفًا. والرّيحُ تعصفُ على مراحِل؛ وكان في وسعِ المرءِ أن يسمعَ العاصفةَ تستجمعُ دَفعًا إضافيًا وهي في طريقها من البحرِ.

سقطَت قرميدةٌ من السّقفِ وحطَّت على الأرضِ. نهضَت الفيليجونك

وأسرعَت إلى غرفة نومِها. كانت الغرفةُ كبيرةً جدًّا؛ ولا تشيعُ الشّعورَ بالأمانِ. المخزَن، نعَم المخزنُ صغيرٌ ومناسِب بما يَكفي. أخذَت الفيليجونك لحافَها من على السّريرِ وقطعَت مدخَل المطبخِ جريًا، دفعَت بابَ المخزنِ بقدمِها وأغلقَته وراءَها. لهثَت قليلاً. هنا في المخزنِ لا يكادُ المرءُ يسمعُ صوتَ العاصِفة. وليسَ فيهِ نافِذة، فقَط شبكةُ مروحةِ تهويةٍ صغيرةٌ.

تلمّسَت طريقَها في العتمةِ مُرورًا بكيسِ البطاطِس، ولفّت نفسَها بلحافِها على الأرضِ تحت رفِّ المُربى.

رُوَيدًا رُوَيدًا بدأ خيالُها يصوِّر لها عاصفةً تخصُّها هي وحدَها. عاصفةٌ أشدُّ سوادًا ووحشيةً من التي كانت تُزعزِع بيتَها. تضخَّمت الأمواجُ وتحوّلَت إلى تَنانين بيضاء، وإعصارٌ صاخبٌ شفَط البحر جاعِلاً إيّاه مِثل عَمود أسوَد في الأُفق، عمودٍ لامِع أقبلَ يندفعُ نحوَها، أقربَ فأقربَ فأقرب...

تلك العواصفُ التي تخصُّها هي الأسوأ من أيِّ شيءٍ آخر. وكانت الفيليجونك في أعماقِ قلبِها فخورةً نوعًا ما بكوارثِها التي ليسَت ملكَ أحد سِواها.

-«غافسي مُغفّلة،» فكّرَت. «امرأةٌ سخيفةٌ لا شيءَ في رأسها سِوى بيوتِ المخدّات والكيك. وهي لا تعرفُ شيئًا عن الأزهار ولا أقلَّ القليلِ عنّي. إنّها الآنَ جالسةٌ في بيتها تفكّرُ في أنّني لم أواجِه شيئًا قطّ. أنا التي ترى نهايةَ العالَم يوميًا، ومع ذلك أُداوِم على ارتداءِ ملابسي وخلعِها ثانيةً، وأُداوِم على تناولِ الطعامِ وغسلِ الصّحون واستقبالِ الزّوار، كما لَو أن كلّ شيءٍ على ما يُرام!»

دفعَت الفيليجونك أنفَها خارجَ اللحافِ، حدّقَت بإمعانٍ شديد في الظّلام وقالت: «سَأُريكم!»

أيًّا كانَ ما عنتهُ بكلامِها. ثمّ تقوقعَت تحت لحافِها وضغطَت أُذنيْها بكَفّيها.


Tove

في الخارج، قُبَيل مُنتصف الليلِ، واصلَت العاصفة اشتدادَها بلا كللٍ ولا مللٍ. وعند السّاعةِ الواحدة بلغَت قُوّتها ٤٧ ياردةً في الثّانية (أو كَيْفما يَقيسون العواصفَ العاتِية على أي حالٍ).

حَوالي السّاعة الثّانية صباحًا تحطّمت المدخنةُ، وسقطَ نصفُها خارجَ البيت، ونصفُها الآخر وقعَ وتهشّم في موقدِ المطبخِ. ومن فجوةِ السّقفِ ظهرَت سماءُ الليلِ القاتِمةُ والسُّحبُ العظيمةُ المُتدافِعة. حينئذٍ وجدَت العاصفةُ طريقَها إلى الدّاخِل، وما عادَ بالإمكان اِستِشفاف شيءٍ سوى رمادٍ مُتطاير وستائِر نوافذٍ ومَفارش طاولات تصطفِقُ بعنفٍ، وصورِ عمّاتٍ وأعمام وخالاتٍ وأخوالٍ تحومُ في الهواء. بُعثت الحياةُ في جميع مُمتلكات الفيليجونك المُقدّسةِ، وراحَت تُهسهِسُ وتُجلجِل وتصطدِم بِما حولها؛ الأبوابُ تخبطُ وحدَها واللوحاتُ تتكسّرُ على الأرضية.

في وسطِ غرفةِ الجلوس وقفَت الفيليجونك بِتنورتها المُتطايرة مذهولةً ومَسعورةً، وقفَت تفكّرُ بارتباك: «هَذه هي. الآنَ تأتِي النّهايةُ. أخيرًا. الآنَ ليس من الضّروري أن أنتظرَ أكثر ممّا فعلتُ.»

رفعَت سماعّة الهاتِف لتتصلَ بغافسي وتُخبرَها... حسنًا، لتخبرَها عن بعضِ الحقائِق السّاحِقة. تخبرُها ببرودٍ وانتصارٍ.

لكن أسلاكَ الهاتف كانت قد تقطّعَت.

ما عادَت الفيليجونك تسمعُ شيئًا إلّا هديرَ العاصفةِ وقَعقَعة قرميدِ السّقف المُتقَلقِل. «إذا صعدتُ إلى العليّة قد يطيرُ السّقف،» فكّرَت. «وإذا نزلتُ إلى القبوِ قد يخرُّ البيتُ على رأسي. هَذا ما سيحدث على أي حالٍ.»

أمسكَت هِرّةً خَزفية وضغطَتها بشدّةٍ في كَفّها. ثمّ فجأةً فُتِحت نافذةٌ عنوةً وتحطّم زجاجُها إلى شَظايا صغيرةٍ على الأرضيةِ. بلّلَت عاصفةٌ من الأمطارِ أثاثَ

الماهوغاني، ورمَى تمثالُ الهِيمْيُولِن الفخمُ نفسَه من على ركيزتِه وتكسّرَ.

بصوتِ تحطُّمٍ مقيتٍ سقطَت الثُّريا العظيمةُ. كانت مِلكًا لخالِها. من جميع الاتجاهاتِ حولَها سَمِعَت الفيليجونك نداءَ أغراضها وهي تَصِرُّ وتستنجدُ. ثمّ وقعَت عينُها على أنفِها الشّاحِب في شظيةِ مِرآة، وبلا تفكيرٍ أسرعَت إلى النّافِذة وقفزَت منها إلى الخارج.

أَلْفَت نفسَها جالسةً على الرّملِ. أحسّت بقطرات مطرٍ دافِئة تحطُّ على وجهها، وكان ثوبُها يُرفرِف ويخفقُ حولَها كالشّراع.

أطبقَت جفنَيها بقوّةٍ وأدركَت أنّها في مركز الخَطر، وأنّها عاجزةٌ تمامًا.

كانت العاصفةُ تهبُّ بثباتٍ لا يعوّقها شيءٌ. لكنّ الضّوضاءَ المُرعبةَ تلاشَت؛ الوَلْولة وأصوات التّحطُّمِ والخبطِ والتّكسّرِ والتّمزّقِ. أصبح الخطرُ في قلبِ البيت وليس خارجَه.

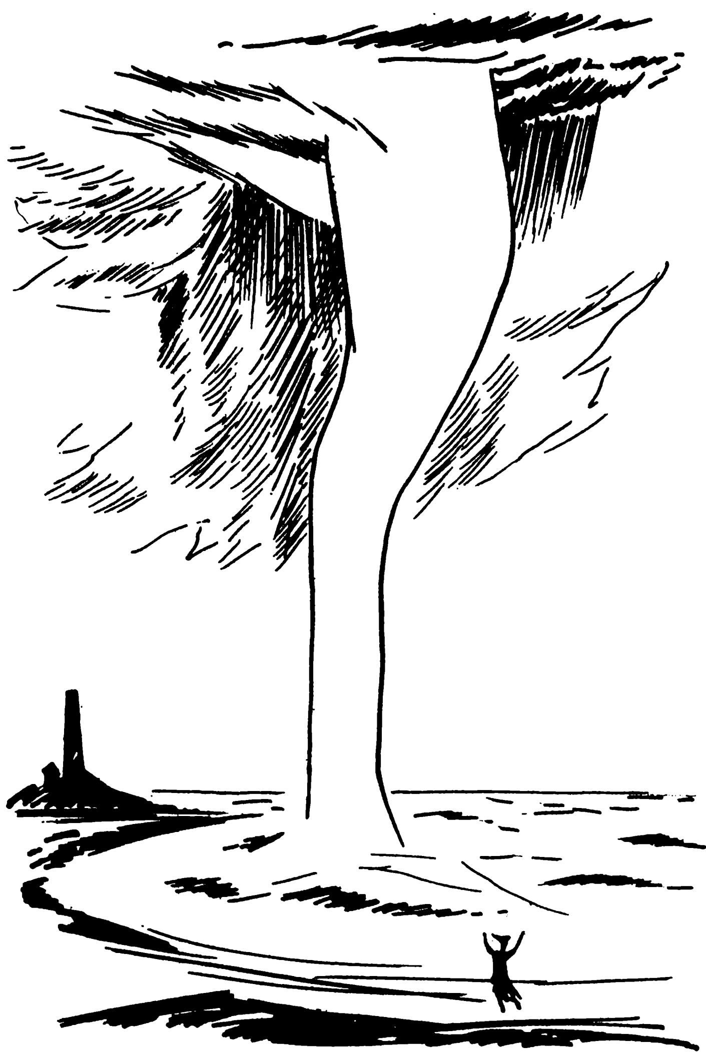
أخذَت الفيليجونك نفسًا حذِرًا، شمّت رائحةَ أعشابِ البحر الحادّةِ والنّفاذةِ وفتحَت عينيها.

رأت أنّ الظّلامَ لم يَعُد كالحًا كما كانَ في غرفةِ الجلوس.

استطاعت أن تتبيّنَ الأمواجَ وذراعَ ضوء المنارةِ الممدودةَ التي تتحرّكُ بتؤدةٍ خلال الليلِ، رأتها تمرُّ بها وتتجوّلُ فوق كُثبانِ الرّملِ، ثمّ تفقدُ السّيطرةَ على نفسِها عند الأُفُق قبل أن تُعاود كرّتها وترجعَ من جَديد، نورُها الهادئ يدورُ ويدورُ بالتّناوبِ مُبقيًا عينَه على العاصفةِ.

-«لم أخرج وحدي في الليلِ من قبل قطّ،» فكّرت الفيليجونك. «فقَط لو عرفَت أمّي...»

بدأت تزحفُ نَحو الشّاطئ عكس اتجاهِ الرّيحِ، لتبتعدَ قَدْر المُستطاع عن بيتِ



الهيمْيُولِن. فعلَت ذلك ويدُها اليُسرى ما زالت قابضةً على الهِرّةِ الخزفية. إذ هَدَّأ من رَوْعها أن يكونَ لديها شيءٌ تَحميه. حالَما اقتربَت لاحظَت أنَّ زُرقةَ البحر غدَت أقرَب إلى البياض. كانت قممُ الأمواج تُدفَع مباشرةً نحو الشّاطئ حيثُ تنجرفُ عليه مثلَ الدّخانِ. ولذلك الدّخانِ مَذاقٌ مالِح.

وراءَها في البيت، ما زال غرضٌ أو آخر يتحطّمُ ويتناثرُ قطعًا هنا وهناك. إلّا أنّ الفيليجونك لم تحفَل بالالتِفات. تقوقعَت مُحتميةً بصخرةٍ كبيرةٍ وحملقَت بَعينين واسعتَين في الظّلام. ما عادَت تحسُّ بالبرد. والغريبُ في الأمر أنّها فجأةً شعرَت بأمان بالِغ. كانَ شعوراً غريبًا جدًّا، واستلطَفَتْه على نحوٍ يفوقُ الوصفَ. ماذا هناكَ لتقلقَ الآنَ منه؟ لقد حلّت الكارثةُ أخيراً.

قُبَيل الصّباح، بدا أنّ العاصفةَ قد استهلكَت جُلَّ قُوّتِها، وبالكاد باتَت الفيليجونك تلاحظُها. جلسَت في مكانِها واستغرقت تفكّرُ بعُمق في نفسِها وفي كارثتِها وأثاثِها، متعجبةً كيف تلاءمَ كلّ ذلك مع بعضِه. في واقِع الأمر، لم يحدُث شيءٌ غيْر مَنطقي باستثناءِ سقوطِ المدخنة.

لكنّها في الوقتِ نفسِه رأت أن لا شيءَ أهمّ من هَذا قد حدثَ لها في حياتِها كلّها. ومجرّد التّفكيرِ في ذلك هزّ مشاعِرها كثيراً وقلبَ الموازين رأسًا على عَقب. ولم تعرف الفيليجونك ما يَنبغي فِعلُه لِتمسكَ زِمام أُمورها ثانيةً.

الفيليجونك القديمة فُقِدت، ولم تكُن واثقةً من أنّها تريدُ استِعادَتها. وماذا عن تلك المُمتلكات التي تخصُّ الفيليجونك القديمةَ؟

تلك الأشياءُ التي تكسَّرت وتصدَّعت وتشرَّبت بالماءِ وتلوّثت بالسّخام؟ أَيُعقلُ أن تجلسَ وتُصلحَها قِطعةً قِطعة، أسبوعًا بعد أسبوعٍ، تُلصق وتُرقّع وتُرمّم وتبحَث

عن أجزاءٍ وشظايا مَفقودةٍ...

أن تغسلَ وتَكوي وتعيدَ دَهن الطّلاء، وتشعرَ بالأسف على ما يتعذَّرُ إصلاحُه، وتعرفَ أنَّه ما زالت هناك صدوعٌ أينما التفتت، وأنّ الأشياءَ كانت في وضْعٍ أفضَل سابقًا... لا، لا! وأن تضعَ االتّحفَ في أماكِنها في الغرف المعتمةِ والكئيبةِ وتحاولَ أن تراها لطيفةً مرّةً أُخرى...

-«لا، لن أفعلَ!» صاحت الفيليجونك ونهضَت على قدمَين مُتشنّجتَين. «إذا حاولتُ أن أعيدَ الأشياءَ إلى ما كانت عليه، يَعني أنني أعودُ كما كنتُ تمامًا. ويعودُ لي خوفي ثانيةً... يُمكنني أن أشعرَ بهذا. والأعاصيرُ سرعانَ ما ترجعُ لتترصّدَني وكذلك الزّوابِع...»

للمرّة الأولى تجَرأت لتلتفتَ وتنظرَ إلى بيت الهِيمْيُولِن. رأت أنَّه ما زالَ واقِفًا في مكانِه، ومُكتظًّا بالمُمتلكات المُحطمة. وقفَ ينتظرُ عودتها لتهتمَّ بتلك الممتلكاتِ.

لم يَحدث قطّ أن ترَكت أيّ فيليجونك أصيلةٌ أغراضها القديمةَ المَوروثة مُهملةً... «كانت أمي ستذكِّرني بالواجِب،» غَمغَمت الفيليجونك.

أقبلَ الصّباح. واستكانَ الأفقُ الشّرقي بانتظارِ شروقِ الشّمس. وبدأت بعضُ مُخلّفات العاصِفة المَطرية المَذعورةِ تُحلّق مبتعدةً، والسّماءُ نُثرت بالغيومِ التي نَسيت الرّيحُ أن تأخذَها معها. قصفَ الرّعدُ بضعَ مرّات قبلَ أن يُلملِم نفسَه ويرحَل.

كانَ الجوُّ مُضطرِبًا ولم يعرف ماذا يريدُ. وكذلك كانَت حالُ الفيليجونك.

في هَذه اللحظةِ وقعَ بصرُها على الإعصارِ.

لم يَبْد مثلَ إعصارِها الخاصّ المميّز الذي كانَ عمودًا أسود لامِعًا من الماء. هَذا كانَ الشّيءَ الحَقيقي. كانَ مُضيئًا. كانَ دوّامةً من غيومٍ بيضاء تتموّجُ نزولاً على شكلِ لَولبٍ ضَخم، على هيئةِ غيومٍ تَغدو ببياضِ الطّباشير في مَوضِع تلامُسِها مع

الماء المُتصاعِد إلى الأعلَى من البحر.

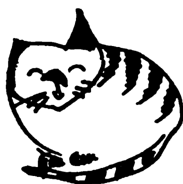
لم يَهدِر. لم يُسرِع. التزمَ الصمتَ وأخذَ يدنو من الشّاطئ ببطءٍ، مُترنّحًا قليلاً في طريقه. أشرقَت الشّمس، واصطبغَ الإعصار بحُمرةِ تُوَيجات الوردِ.

بَدا لا نِهائي الامتدادِ، يُدوِّم بصمتٍ وقُوّة ويدورُ حول نفسِه، وببطءٍ يقتربُ ويقتربُ أكثرَ فأكثَر...

عجزَت الفيليجونك عن الإتيانِ بحركةٍ. وقفَت هامِدةً، ساكِنةً تمامًا، تضغطُ الهرّةَ الخزفية في كَفِّها وتفكّرُ: «أوه، كارِثتي الجميلةُ كارِثتي الرّائعةُ...»

تحوّلَ الإعصارُ على الشّاطئ، غيْر بعيدٍ عن الفيليجونك. ثمّ تَجاوزها العمودُ المَلكي المَهيب، أصبحَ عَمودًا من رملٍ، وبهدوءٍ تامّ رفعَ سقفَ بيتِ الهِيمْيُولِن. رأته الفيليجونك يُحلّقُ في الهواء ويختفي. رأت أثاثَها يحومُ في الفضاء ويَختفي. رأت تُحفَها كلّها تطيرُ نَحو السّماء مباشرةً. مَفارشُ الصّواني، وإطاراتُ الصّورِ، وأغطيةُ أباريقِ الشّاي، ودورقُ جدَّتها الفضي الخاصُّ بالحليب، والجُمَلُ المُطرّزةُ بالحرير وخيوطِ الفِضة، كلُّ شيءٍ! وفكّرت بنشوةٍ: «هَذا رائعٌ، رائعٌ جدًّا. ماذا يُمكن أن تفعلَ فيليجونك مسكينةٌ وصغيرةٌ أمام قوَى الطّبيعةِ العُظمى؟ ماذا هناك الآنَ ليُصلحَ ويُرمَّمَ؟ لا شيء! كلُّ شيءٍ نُظِّفَ جيدًا وجُرِف بعيدًا!»

مضَى الإعصار مبتعدًا فوقَ الحقول. رأتهُ يستدقُّ، رأته يتكسّرُ ويتشتّت. لقد قضَى مُهمّتَه وما عادَت هناك أيُّ حاجةٍ له.



أخذَت الفيليجونك نفسًا عميقًا. «الآن لن أخافَ من شيءٍ ثانيةً،» قالت لنفسِها. «أصبحتُ حُرةً الآن. وفي وسعي أن أفعلَ ما يَحلو لي.»

وضعَت الهرّةَ الخزفية على صخرةٍ. كانت قد فقدَت أُذُنًا في الليل، وحطَّت على أنفِها قطرةُ نفطٍ. حصلَت بذلك على مظهرٍ جديدٍ، مظهرٍ خُرافي وجسورٍ نوعًا ما.

توسّطَت الشّمسُ كبدَ السّماء. وتدرّجَت الفيليجونك نحوَ الرّملِ الرّطبِ حيث تستقرُّ سجادتُها التي زيَّنها البحر بالعشبِ والأصدافِ، ولا سجادةَ أبدًا شُطِفت أكثَر منها.

ضحكَت الفيليجونك. رفعَت السّجادةَ بيدَيها الاثنتَين وسحَبتها نحوَ الأمواج.

غاصَت بطيشٍ في قلبِ الأمواجِ الخَضراء الضّخمة، تربّعَت على سجادتِها وأبحرَت مخترقةً الرّغوةَ البيضاء الساخِنة، غاصَت ثانيةً، أعمَق فأعمَق.

غاصَت وفَوْقها تنطوي موجةٌ تلوَ أُخرى، أمواجٌ شفافةُ الخُضرة. ثمّ ما لبثَت الفيليجونك أن عادت إلى السّطحِ لتلتقطَ أنفاسَها ولتتأمّلَ الشّمسَ، بَقبقَت وضحكَت وصاحَت ورقصَت وهي تمخرُ عبابَ البحرِ مُعتليةً سجادتَها.

لم تختَبِر قطّ في حياتها مثلَ هَذا المرح.

لم تلمَح الفيليجونك غافسي التي مضَت عليها عدّةُ دقائق وهي واقفةٌ تناديها.

-«يا للفظاعَة!» صاحَت غافسي. «أوه يا لَكِ من مسكينةٍ يا سيّدة فيليجونك العزيزة!»

-«صباحُ الخَير!» قالت الفيليجونك وهي تسحبُ سجادتَها إلى الشّاطئ. «كيفَ حالُكِ اليوم؟»

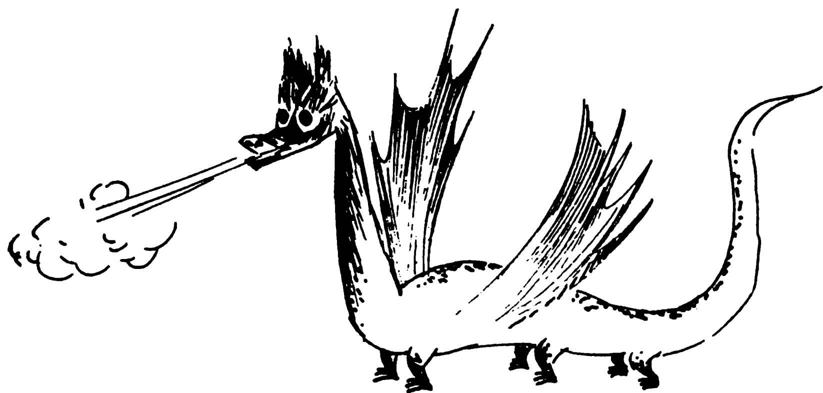
-«أنا في غايةِ الاضطرابِ،» أجابت غافسي. «يا لَها من ليلةٍ! فكّرتُ فيكِ طوالَ الوقتِ. وشاهدتُ الإعصارَ بنفسي! رأيتُه يأتي! يا لَها من كارثة!»

-«ما تَعنين؟» سألَتها الفيليجونك ببراءةٍ.

-«كم كنتِ مُحقّةً، مُحقّةً تمامًا،» قالت غافسي. «قلتِ إنّ هناك كارثة في طريقها إلى القدومِ. أوه، أغراضُكِ الجميلةُ كلّها! بيتكِ الجميلُ! حاولتُ أن أتصلَ بكِ طوال الليلِ، قلِقتُ كثيراً، لكن أسلاكَ الهاتفِ تقطّعَت...»

-«أنتِ لطيفةٌ للغايةِ،» قالت الفيليجونك وهي تعصرُ طاقيتَها من الماءِ. «إنّما حقًّا لا داعيَ لهذا. إذا شعرتِ بالقلقِ لا شيءَ يُضاهي إضافةَ القليلِ من الخَلِّ إلى ماءِ الشّطفِ. حينئذٍ تبقَى الألوانُ ثابتةً!»

وهُنا، جلسَت الفيليجونك على الرّملِ واستغرقَت في الضّحكِ إلى أن طَفرَت الدّموعُ من عينَيها.



آخِرُ تنّينٍ في العالَم



في يومِ خميسٍ صيفيٍّ قائظٍ، اِصطاد مومين ترول تنّينًا صغيراً من البِركة البُنيّة إلى يمين شجرةِ أُرجوحَة بابا مومين.

هو طبعًا لم يحلُم باصطياد تنّينٍ. كانَ يطارد بعضَ تلك الأشياءِ الصّغيرة المُختلِجة التي دأبَت على السّباحة هنا وهناك في القاعِ الطّيني، لأنّه أراد أن يعرفَ كيف تُحرِّك قوائِمَها وهي تسبحُ، وإن كانت تحركها دائمًا إلى الوراء. لكن، عندما رفعَ وعاءَه الزُّجاجي تجاهَ الضّوءِ رأى فيه شيئًا مختلفًا كلّ الاختلاف.

-«تباركَ ذَيْلي إلى الأبد،» همسَ مومين ترول برهبةٍ. حمل الوعاءَ بين يدَيه وعجزَ عن فِعل شيءٍ ما عدا التّحديقِ.

لم يَكُن التّنينُ أكبرَ من علبة ثقابٍ، وراحَ يسبحُ في الوعاء بضرباتٍ رشيقةٍ من جناحَيه الشّفافَين اللذَين يُماثلان في جمالِهما جمال زعانِف سمكةٍ ذهبيةٍ.

إنّما ولا أيّ سمكةٍ ذهبيةٍ اِمتلكت ذلك اللونَ الذّهبي البديع مثل هَذا التّنين المُنمنم. كانَ يشعّ كالذّهب. مُنحنياته بدت ذهبيةً تحت الشّمس، رأسُه الصّغير بخُضرة الزّمردِ، وعَيناه بصُفرة الليمونِ، وقوائِمُه الذّهبية السّت تنتهي بأقدامٍ خضراء، والذّيل اصطبغَ طرفُه باللون الأخضرِ. كانَ بلا جدالٍ تنّينًا فائِق الرّوعةِ.

أحكمَ مومين ترول إغلاقَ غطاءِ الوِعاء (في الغطاءِ فتحاتٌ للتنفّس طبعًا) وبحرصٍ وضعَه أرضًا، ثمّ استلقى إلى جانبِه لِيمعِنَ النّظرَ فيه عن قُرب.

سبحَ التّنينُ قريبًا من الحائِط الزُّجاجي وفتح فكيّه الصغيرَين اللذَين كشفا عن أسنانٍ صغيرةٍ بيضاءَ مُتراصّة.

-«إنَّه غاضبٌ،» فكّر مومين ترول. «غاضبٌ على الرّغم من أنَّه صغير جدًّا جدًّا. ماذا أفعلُ لأجعلهُ يُحبّني؟ ... وماذا يأكلُ؟ على ماذا تتغذّى التّنانين؟»

بشيءٍ من القلقِ واللهفةِ لفّ ذِراعيه حول الوعاءِ وتوجّه نحوَ البيتِ بحرصٍ وتأنٍ لئلا يتأذّى التّنين بالحيطانِ الزُّجاجية. كانَ في مُنتَهى الصّغرِ وفي مُنتَهى الهَشاشة.

-«سأحتفظُ بكَ وأُلاعِبكَ وأُحبّكَ،» همسَ مومين ترول. «يُمكنكَ أن تنام على مخدّتي عندما تكبرُ وتبدأ تُحبّني، وسآخذكَ لتسبحَ في البحرِ...»

كانَ بابا مومين يعملُ في رُقعة التّبغ. بإمكان المَرء طبعًا أن يريَه التّنينَ ويسألَه عنه، فكّر مومين ترول. أو ربّما يُستحسن العُدول عن هَذه الفِكرة. ربّما من الأفضل أن يبقى سرًّا بِضعة أيامٍ إلى أن يألَف رُؤية النّاس، وإلى أن يختبرَ المَرءُ المرحَ الأعظَم عندما يخبرُ سنفكين عنه.

ضغطَ مومين ترول الوعاءَ بقُوّةٍ إلى صدرِه ويمّمَ باب البيت الخَلفي وهو يظهرُ اللامُبالاة قَدْر المُستطاع. كانَ الآخرون في مكانٍ ما في جهةِ البيتِ الأمامية عند الشُّرفة. لكن، لحظةَ تسلّل مومين ترول صاعدًا الدّرجَ الخلفي قفزَت ماي الصّغيرة





وظهرَت من وراء برْميل الماءِ وصاحَت: «ماذا لديكَ؟»

-«لا شيء،» أجابَ مومين ترول.

-«وعاءٌ زُجاجي،» هتفَت ماي الصّغيرة وهي تمطُّ رقبتها. «ماذا فيهِ؟ ولماذا تُخفيه؟»

أسرعَ مومين ترول إلى الطّابقِ العُلوي فغُرفتِه. وضَع الوِعاء على الطّاولة. كانَ الماءُ يتَخَضخَض، والتّنين لفَّ جناحَيه حول جسمِه وتقَوقَع على شكلِ كُرةٍ. ثمّ بَدأ يَعتدلُ ببطءٍ مُكشّرًا عن أنيابه.

-«لن يتكرّرَ هَذا مرّةً أُخرى،» وعدَه مومين ترول. «أنا آسِف كثيراً يا عزيزي.» أردفَ وهو يفتح الغطاءَ ليمنحَ التّنينَ رؤيةً أفضَل، ثمّ مضَى إلى الباب وأوصدَه. فالمرءُ لا يعرف أبدًا ما قد يحدثُ مع ماي.



عِندما عادَ إلى التّنين، اكتشفَ أنَّه زحفَ خارجَ الماء وجلس على فُوَّهة الوِعاء. مدَّ مومين ترول يدَه بحذرٍ ليداعبَه.

عندئذٍ فتحَ التّنين فَكَيّه ثانيةً ونفخَ غيمةً صغيرةً من الدّخان. اندفعَ على إثرِها لسانٌ أحمَر مثل شُعلة نارٍ ثمّ اختفَى...

-«آخ،» تأوّهَ مومين ترول متوجّعًا لأن يدَه لُسِعت بالنّار، ليس كثيراً لكن ذلك كانَ واضِحًا.

تزايدَ إعجابُه بالتّنين أكثر من السّابقِ.

-«أنتَ غاضبٌ، أليسَ كذلك؟» قالَ بصوتٍ خافت. «أنتَ طائشٌ وقاسٍ وشريرٌ جدًّا، ها؟ أوه، يا لكَ من صغيرٍ حُلوٍ طيّبٍ طَيوب طَيوبي!»

نخرَ التّنين.

زحفَ مومين ترول تحت سريرِه وسحَب صندوقَه الليلي. كان يحتوي على بعضِ الفطائرِ المُحلاة، التي غدَت يابِسة قليلاً، ونصفِ رغيفِ خُبز بالزّبدة وتُفاحة. قطعَ نُتفًا صغيرةً من كلّ تلك الأشياء ووضعَ اللُقَيْمات على الطّاولة في دائرةٍ حولَ التّنين. شمَّها التّنين ووجّه إليه نظرةَ ازدراءٍ، ثمّ فجأةً هرعَ برشاقةٍ مُدهشةٍ نحو النّافِذة. هناك انقضَّ على ذُبابةِ صَيف كبيرة.

توقّفَت الذُّبابة عن الطّنينِ وبدأت تُصَرصِر. في تلك الآوِنة كانَ التّنين قد أحكمَ وضعَ قَدمَيه الأماميتَين الصّغيرتَين حول رقبَتها ونفخَ القليلَ من الدّخانِ في عينَيها.

وبعد ذلك أخذَت الأسنانُ البيضاءُ الصّغيرةُ تُطَقطِق، فُتِحَ الفكّان واختفَت ذُبابة الصّيف. ازدرَد التّنين مرّتين، لعقَ خَطمَه، حكَّ أُذنَه، وبالتِفاتةٍ جانبيةٍ منحَ مومين ترول نظرةً ساخرةً.

-«يا لَكَ من ذَكي!» صاحَ مومين ترول. «يا صَغيري تيني ويني بو!»

في تلك اللحظةِ قرعَت ماما مومين جرسَ الغداءِ في الأسفلِ.

-«اِنتظرني الآن وأحسِن التّصرّفَ،» قالَ مومين ترول. «لن ألبثَ أن أعودَ.»

وقف برهةً ينظرُ بلهفةٍ إلى التّنين الذي لم يَبْد مُطلقًا أنَّه جديرٌ بالدّلال. ثمّ همسَ: «صَغيري المَحبوب،» وجرى إلى الطّابقِ الأرضي ومنه إلى الشّرفةِ.

قبلَ أن تلمسَ ملعقةُ ماي الصّغيرة العصيدةَ انبرَت تقولُ: «يبدو أنّ بعضَ النّاس يُخفون أسرارًا غامِضةً في أَوعية زُجاجيةٍ.»

-«اسكُتي،» نهرَها مومين ترول.

-«المرءُ مُضطرٌّ إلى الاعتقادِ،» تابَعت ماي الصّغيرة، «أنّ بعضَ النّاسِ يَحتفظون بالعلَق أو سوسِ الخشبِ أو ربّما حشرات أمّ أربعة وأربعين الضّخمة التي تتكاثرُ مِئة مرّةٍ في الدّقيقة.»

-«ماما،» قالَ مومين ترول، «تَعرفين أنّني تمنّيتُ دائمًا أن يكون عندي حيوانٌ أليفٌ مولعٌ بي، وفي حالِ حصلتُ يومًا على واحدٍ فهو ينبغي أن يكونَ أو يمكنُ أن يكونَ...»

-«ما كَميةُ الخشبِ التي يُمكن أن تنخرَها سُوسة الخشبِ،» قالت ماي وهي تنفخُ فُقاعات في كوبِ الحليبِ.

-«ماذا؟» سألَ بابا مومين وهو يرفعُ نظرَه عن صحيفتهِ.

-«عثرَ مومين ترول على حيوانٍ جديدٍ،» وضّحَت ماما مومين.

-«أَيعضّ؟»

-«إنَّه أصغرُ من أن يعضَّ بِقُوةٍ،» غمغَم مومين ترول.

-«وعِندما يكبرُ؟» سألت بنتُ الميمبل. «متى يُمكننا أن نُلقي نظرةً عليه؟

أَيتكلّم؟»

سكتَ مومين ترول. أدركَ أنّ كلّ شيءٍ قد أُفْسِدَ. كان قد رأى أنَّه يحقُّ للمرءِ أن يحتفظَ بالأسرار ثمّ يُفاجئ النّاسَ بالبوحِ بها. لكن، ما دامَ المرء يعيشُ ضمنَ عائلةٍ فلا أسرارَ ولا مُفاجآت. العائلةُ تعرفُ الصّغيرةَ والكبيرةَ من البدايةِ، ولا شيءَ بعد ذلك فيه أيّ مرحٍ.

-«أنوي النّزولَ إلى ضفّةِ النّهر بعدَ الغداء،» قالَ مومين ترول ببطءٍ وازدراءٍ. ازدراءٌ يُماثلُ ازدراءَ تنّينٍ. «ماما رجاءً قولي لهُم ألّا يدخلوا غرفتي. لستُ مَسؤولاً عن النّتائجِ إذا فعلوا.»

-«لا بأسَ،» قالت ماما مومين وعايَنت ماي بنظرةٍ. «لا يُسمَح لأيّ روحٍ حيّةٍ أن تفتحَ بابَ غرفته.»

أنهَى مومين ترول عَصيدته بصمتٍ مهيبٍ ثمّ خرج عبرَ الحديقة ونزل إلى الجسرِ.

كانَ سنفكين جالسًا أمامَ خيمتِه، يدهنُ طَوْفًا من الفِلّين. وبمجرّد أن نظرَ إليه مومين ترول عادَ إليه فرحُه بتنّينه.

-«عجبًا،» قالَ. «أحيانًا لا يأتيكَ من العائِلة إلّا الإزعاجَ.»



نخرَ سنفكين موافِقًا من غيْر أن يخرجَ غليونَه من فمِه. جلسَا صامتَين فترةً بتضامُنٍ ذُكوري ودودٍ.

-«على فِكرة،» هتفَ مومين ترول فجأةً، «أَسبقَ لكَ أن صادفْتَ تنّينًا في رحلاتِك؟»

-«أنتَ لا تعني السّمندرات ولا السّحالي ولا التّماسيح على ما يبدو،» أجابَ سنفكين بعد صمتٍ طويلٍ. «أنتَ تعني التّنانين. لا، أبدًا. التّنانين انقرضَت.»

-«ربّما بقي واحِدٌ لم ينقرِض بَعد،» قالَ مومين ترول بهدوءٍ. «وربّما قد يتسنّى لشخصٍ أن يأسرَه في وِعاء زُجاجي يومًا ما.»

عايَنه سنفكين بنظرةٍ ثاقِبة ورأى أنَّه يكادُ ينفجرُ من شدّة البهجةِ والتّرقّب. ولذلك أجابَ باقتضاب: «لا أُصدّقُ.»

-«من المُحتمل ألّا يكونَ أكبر من علبةِ ثِقاب، ومع ذلك يستطيعُ أن ينفثَ النّار كما ينبغي،» تابعَ مومين ترول وهو يتثاءَب.

-«حسنًا، هَذا محضُ خيالٍ طبعًا،» قالَ سنفكين الذي عرفَ كيفَ تُحَضَّر المُفاجآت.

حدّقَ مومين ترول بعيدًا وقال: «تنّينٌ ذهبيٌّ وكفوفٌ مُنَمْنمة خضراء، يكرّسُ نفسَه لمخلوقٍ واحدٍ ويتبَعُه أينَما ذهبَ...»

ثمّ قفز مومين ترول واقفًا وصاحَ: «وجدتُه! وجدتُ تنّينًا حقيقيًا يخُصُّني أنا وحدي!»

بينَما مشَيا إلى البيت، تعمّدَ سنفكين المُضي إلى النّهايةِ في التّظاهُر بعدمِ التّصديقِ والدّهشةِ والتّعجّبِ. كانَ مثاليًا في تظاهُرِه. صعدا إلى الطّابق العُلوي،

فتحا البابَ بحذرٍ شديدٍ ودخلا.

رأيا وِعاء الماء على الطّاولة كالسّابقِ، أمّا التّنين فلا أثرَ له. فتّشَ مومين ترول تحت السّرير، وراءَ صندوقِ الأدراج، وفي جميع أركانِ الأرضيةِ، وهو يُنادي طوالَ الوقت: «رَفيقي الصّغير... يا حُلو يا لطيف... يا حَبّوب.. يا تيني ويني أين أنت...»

-«مومين،» قالَ سنفكين، «هو قابِعٌ على سِتارة النّافِذة.»

وهكذا بالفعلِ كانَ، يجلسُ عاليًا على قضيبِ السّتارة قريبًا من السّقف.

-«يا للهَولِ!» صاح مومين ترول بذُعرٍ عظيمٍ. «يجبُ ألّا يسقطَ أرضًا... اِلزَم الهدوءَ... اِنتظَر قليلاً... لا تَتكلّم...»

نزعَ أغطيةَ سريرِهِ وفرشَها على الأرضِ تحت النّافِذة. ثمّ حملَ شبكةَ الهِيمْيُولِن القديمةَ الخاصّة باصطيادِ الفراشاتِ ورفعَها نحو التّنين.

-«اِقفز!» همسَ. «اِقفِز يا تيني ويني... لا تَخَف... هَذه لن تُؤذيكَ...»

-«ستُخيفُه،» قالَ سنفكين.

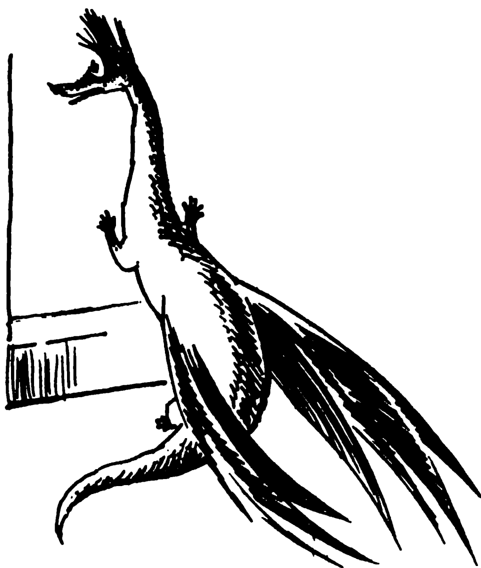
تثاءبَ التّنينُ وهَسهَس. عاجَل الشبكةَ بِعَضّةٍ قَويةٍ وبدأ يُخَرخِر مثل مُحرّكٍ صغير. ثمّ فجأةً رفرفَ بجناحَيه تحت السّقفِ مباشرةً وحامَ طائرًا في دوائر.

-«إنَّه يطيرُ، إنَّه يطيرُ!» صاح مومين ترول. «تنّيني يطيرُ!»

-«طبعًا،» قالَ سنفكين. «توقّف عن القفزِ هَكذا. اِهدَأ.»

لبثَ التّنين مُعلّقا في الهواء ساكِنًا بلا حراكٍ. كانَ جناحاهُ ضَبابيين كَجناحي عثّةٍ. وفجأةً غاصَ نزولاً، عضَّ أُذنَ مومين ترول الذي ندّت عنه صرخةُ ألمٍ، ثمّ طارَ مباشرةً نَحوَ سنفكين واستقرَّ على كتفه.

حطَّ على مَقربةٍ من أُذنه، أغمضَ عَينيه وخرَّ بصوتٍ أعلى من السّابقِ.



-«يا لَه من مخلوقٍ طريفٍ،» قالَ سنفكين بصوتٍ ملؤُه الدّهشةُ. «إنَّه ساخِنٌ ومُتوهِّج. ماذا يفعلُ الآن؟»

-«هو يتودّدُ إليكَ،» أجابَ مومين ترول.

بعد الظّهرِ عادت آنسة سنورك إلى البيتِ من زيارةِ جَدّة ماي الصّغيرة، وطبعًا أَخبروها في الحالِ أنّ مومين ترول عثرَ على تنّينٍ.

كانَ جاثِمًا على طاولةِ الشّرفةِ إلى جانبِ فنجانِ قهوة سنفكين يلعقُ كَفّيه. كانَ قد عضَّ الجميعَ ما عَدا سنفكين، وكلّما أغضبَه شيءٌ نفثَ النّارَ وأحدثَ فجوةً في مكانٍ ما.

-«يا لَه من فطيرةٍ حُلوة،» هتفَت آنسة سنورك. «ما اسمُه؟»

-«لا شيءَ مُعيّن،» غَمغَم مومين ترول. «إنَّه تنّين فقَط.»

مدّ يدَه بحذرٍ وتركَها تزحفُ عبر الطّاولة إلى أن لمسَت إحدى السّيقان الصّغيرة المذهبة. وعلى الفورِ اِستدارَ التّنينُ، فحَّ عليه، ونفخَ غيمةَ دخانٍ صغيرةً.

-«ما أحلاهُ!» صاحَت آنسة سنورك.

هرع التّنينُ إلى غليونِ سنفكين المُستقرّ على الطّاولة، وتشمّمَ مُستوعَبَه.

حيثُ سبقَ له أن جلسَ تشكّلَت فجوةٌ مستديرةٌ بُنيّة الأطرافِ على مفرش الطّاولة.

-«أتراهُ يستطيعُ حرقَ المُشمّعِ أيضًا،» تساءلت ماما مومين.

-«طبعًا،» أجابَت ماي الصّغيرة. «ما عليكم إلّا أن تَنتظِروا حتّى يَنمو قليلاً. سيحرقُ البيتَ بأكملِه على رؤوسنا.»

تناولَت قطعةَ كعكةٍ، فأسرعَ التّنينُ نحوها مثلَ سعيرٍ ذَهبي صغيرٍ وعضَّها في كَفِّها.

-«أنتَ يا.. يا.. عَنكبوت!» صاحَت ماي ولطَمت التّنينَ بمنديلِها.

-«إذا قلتِ أشياءً كَهذه لن تَدخلي الجنّةَ أبدًا،» نهرَتها بنتُ الميمبل فوراً.

لكن مومين ترول أوقَفها عن الكلام بصيحة.

-«إنّه ليسَ خَطأ التّنينِ! ظنَّ أنّكِ تُريدين الذّبابةَ التي حطَّت على الكعكةِ.»

-«أفٍ لكَ أنتَ وتنّينكَ!» صاحَت ماي التي آلَمَتها يدُها ألَمًا بالغًا. «هو ليسَ تنّينكَ على أيّ حالٍ. هو تنّينُ سنفكين لأنّه لا يحبّ غيرَه!»

عندئذٍ رانَ الصّمتُ على الجميع.

-«أَسَمِعتُ الزّيتَ يَغلي ويَفور؟» دمدمَ سنفكين ونهضَ مغادرًا الطّاولة. «لن تمضيَ ساعاتٌ إلّا ويعرفُ لِمَن ينتمي. حسنًا. هيّا اِنطلِق. طِر إلى سَيّدِكَ!»

لكن التّنين استقرَّ على كتفِ سنفكين، وتشبّثَ به بمخالبِهِ السّتةِ وهو يُقرقِرُ



طوال الوقت مثل ماكينةِ خِياطةٍ. اِلتقَطه سنفكين بسبابتِه وإبهامِه ووضعَه تحتَ غطاءِ إبريق الشّاي. بعد ذلكَ فتحَ البابَ الزّجاجي وخرجَ إلى الحديقة.

-«أوه، سيختنقُ هَكذا،» قالَ مومين ترول ورفعَ غطاءَ إبريق الشّاي نصفَ بُوصة، فاندفعَ التّنينُ كالبرق وطار إلى النّافِذة مُباشرةً، ثمّ جثمَ هناك يحدّقُ في سنفكين وكفوفُه على الزّجاج. بعد بُرهةٍ قصيرةٍ بدأ يَئِن، وتحوّلَ لونُه الذّهبي إلى رمادي من رقبتِه إلى ذيلِه.

-«التّنانينُ،» كسرَ بابا مومين الصّمتَ، «اختفت من الوعي الجَماعي قبل حَوالي سبعينَ سَنةٍ. لقد بحثتُ عن الكلمةِ في المَوسوعةِ. آخِرُ من بقيَ حيًّا مِنهم كانَ النّوعَ العاطِفي الذي يهتاجُ بِشدّةٍ. هَذا النّوعُ هو الأعنَد، ولا يُغيّر رأيَه بخصوصِ أيّ شيءٍ...»

-«شكرًا على الشّاي،» قالَ مومين ترول وغادرَ الطّاولة. «أنا صاعِدٌ إلى الأعلَى.»

-«يا عَزيزي أَنترُك تنّينكَ هنا في الشّرفةِ؟» سألته ماما مومين. «أم أنّك ستأخذُه معكَ؟»

لم يُجِب مومين ترول.

ذهبَ إلى البابِ وفتحَه. لاحَ هناك وميضٌ بَينما هَسهَس التّنينُ وهو يتجاوزهُ. عندئذٍ صاحَت آنسة سنورك «أوه! لن تنجحَ في اصطيادِه ثانيةً! لماذا فعلتَ هَذا؟ أنا لم أتأمّلْه كما ينبغي إلى حدّ الآن!»

-«اِذهَبي وابحَثي عن سنفكين،» قالَ مومين ترول وهو يكزُّ على أسنانِه. «سترينه جاثمًا على كتفه.»

-«أوه يا صَغيري،» هتفت ماما مومين بصوتٍ حزين. «يا ترووليتي المِسكين.»

لم يكُن سنفكين قد انتهَى بعدُ من تعليق الطُّعمِ في صنارةِ صيْد السّمكِ عندما أقبلَ التّنينُ يئزُّ واستقرّ على ركبته، ومن شدّة فرحِه بعثورِه عليه كادَ يعقدُ نفسَه حولها.

-«حسنًا، هَذا إبريقٌ جميلٌ،» قالَ سنفكين وكنسَ المخلوقَ بعيدًا عنه. «هش! انطلِق! اذهَب إلى بيتكَ!»

لكن بالطّبع عرفَ أن لا فائدةَ من هَذا. عرفَ أنّ التّنينَ لن يتركَه أبدًا. وحَسبما يعلَم، هو يُمكن أن يعيشَ مِئة سنةٍ.

نظرَ سنفكين بشيءٍ من الحزنِ إلى المخلوقِ الصّغير اللامِع الذي بذلَ جُهدًا كبيرًا ليجذبَ انتباهَه.

-«أنتَ لطيفٌ،» قالَ. «نعَم، والاحتفاظُ بكَ ممتعٌ. لكن ألا ترى، هناك مومين ترول...»

تثاءبَ التّنين. طارَ إلى حافّة قُبّعةِ سنفكين الخشنةِ، وتقوقَع على نفسِه لينامَ عليها. تنهّدَ سنفكين وألقَى خَيطَ الصّنارةِ في النّهر. كانَ طَوْفُه الجديدُ يتمايلُ مع التّيار وهو يشعُّ بِحُمرة فاقعة. عرفَ أنّ مومين ترول لن يرغبَ في صيدِ السّمك اليومَ. فالغروك تقضي على كلِّ شيءٍ...

مرَّت السّاعاتُ.

طارَ التّنينُ الصّغيرُ واصطادَ بعضَ الذّباب ثمّ عاد لينامَ على القُبّعةِ. اصطادَ سنفكين خمسَ سمَكات من نَوع الرّوش، وسمكةَ أنقليس واحدةً، لكنه ما لبثَ أن أفلتَ هذه الأخيرة لأنّها أحدثَت الكثيرَ من الهَرج والمَرج.

قُبَيل المساءِ لمحَ قاربًا يتقدّمُ من أقصى النّهر. كانَ يقودُه هِيمْيُولن فَتيّ.

-«أيُّ حظٍّ؟» سأل الهِيمْيُولِن.

-«لا بأس،» أجابَ سنفكين. «أتَنوي التّوغّلَ بعيدًا؟»

-«أوه، تقريبًا،» هَمهَم الهِيمْيُولِن.

-«ناوِلني حبلَ قاربِك،» قالَ سنفكين. «قد تستفيدُ من بعضِ السّمكِ. غَلّف السّمكَ بورق صحيفة رطب واشوه على الجمر. هَذا ليس سيئًا.»



-«وماذا تريدُ مُقابِل ذلك؟» سأَلَه الهِيمْيُولِن الذي لم يكُن مُعتادًا على الهَدايا.

ضحكَ سنفكين ونزعَ قُبّعته وعليها التّنينُ النّائمُ.

-«اِسمَعني الآن،» قالَ سنفكين. «خُذ هَذه معكَ على طولِ المسافةِ التي تنوي قطعَها، واتركها في مكانٍ وارفٍ حيثُ يوجدُ ذُبابٌ كثيرٌ. اِطوِ القُبّعةَ لتبدوَ مثلَ عُشٍّ، وضَعْها تحتَ شُجيرة أو ما يُشبِهها ليشعرَ التّنينُ أنّه في بيتِه.»

-«أَهَذا تنّينٌ؟» سأل الهِيمْيُولِن بارتيابٍ. «أيعضُّ؟ كم مرّة يَنبغي على المرءِ أن يُطعِمَه؟»

دخل سنفكين إلى خيمتِه وجلبَ إبريقَ الشّاي القديم. أدخلَ فيه حزمةَ عُشب وبحذرٍ حطَّ التّنين النّائمَ عليها ثمّ وضعَ غطاءَ الإبريقِ وقال: «يمكنكَ أن تُدخِلَ بعضَ الذّبابِ في صنبورِ الإبريقِ بين حين وآخَر، وتصبَّ قطراتٍ من الماء بين آنٍ وآخَر أيضًا. لا تهتمّ إذا أصبحَ الإبريقُ حارًّا. خُذ. بعد يومَين تستطيع تركَه في مكانٍ ما.»

-«هَذه مهمّةٌ عَويصةٌ مقابِل خمسِ سَمكات،» قالَ الهِيمْيُولِن بمرارةٍ وشدَّ إليه حبلَ قاربِه فبدأ القاربُ ينزلق مع التّيارِ.

-«لا تنسَ القُبّعة،» صاح سنفكين من فوق النهر. «إنَّه دقيقٌ جدًّا بخصوصِ قُبّعتي.»

-«لا، لا، لا،» صاح الهِيمْيُولِن واختفى عندَ مُنعطف النّهر.

-«سيُحرقُ أصابعَه أحيانًا،» فكّر سنفكين. «ولعلّه يستحقّ هَذا.»

جاءَ مومين ترول بعد الغروبِ.

-«أهلاً،» حيّاه سنفكين.

-«إيه... سَلامات،» قالَ مومين ترول بصوتٍ أجوَف «اِصطدتَ شيئًا؟»

-«لا بأس،» أجابَ سنفكين. «أَلَن تجلِسَ؟»

-«أوه، صدفَ أنّني كنتُ ماراًّ من هنا،» غمغَم مومين ترول.

خيّمت عليهما فترةُ صمتٍ. نوعٌ جديدٌ من الصّمتِ، مُتوتّر ومُحرَج. وأخيراً سألَ مومين ترول:

-«أيشعُّ في الظّلام؟»

-«مَن؟»

-«أوه، التّنين. بدا لي فقط أنَّه من المُسلّي أن أسألَ إذا كانَ مثلُ هَذا المخلوقِ يتوهّجُ في الظّلام.»

-«لا أعرفُ حقًّا،» أجابَ سنفكين. «يجدرُ بكَ أن تذهبَ إلى البيت وتُلقي نظرةً.»

-«لكنني تركتُه يخرجُ،» صاح مومين ترول. «أَلَم يأتِ إليكَ؟»

-«لا،» أجابَ سنفكين وهو يشعلُ غليونَه. «التّنانينُ تفعلُ ما يَحلو لها. هي طائشةٌ جدًّا، وإذا رأى أحدُها ذبابةً سمينةً ينسى كلّ ما عداها. هَكذا التّنانينُ. إنّها ليسَت أكثر من ذلك في الواقِع.»

سكتَ مومين ترول مدّةً طويلةً. ثمّ جلسَ على العشبِ وقال: «لعلّكَ على حقٍّ. ولعلّه من الجَيّدِ أنّه رحلَ. حسنًا، نعم، أُفضِّل أن أفكّرَ أنّ هَذا أحسن. سنفكين، طَوْفُكَ الجديدُ ذاك، أفترضُ أنّ منظرَه بَدا لطيفًا في الماء. أعني الطّوْفَ الأحمَر.»

-«مقبولٌ،» قالَ سنفكين. «سأصنعُ لكَ واحدًا. أَفي نِيّتِكَ أن تخرجَ إلى صَيْد السّمكِ غدًا؟»

-«بالتّأكيدِ،» أجابَ مومين ترول. «نعَم طبعًا.»



الهِيمْيُولِن الذي أحبّ السّكينة



في قديمِ الزّمان كانَ هناك هِيمْيُولِن يعملُ في مدينة الملاهي، وهذا لا يعني بالضّرورةِ الحصولَ على كثيرٍ من المَرح. كانت وظيفتُه ثقبَ التّذاكرِ كي لا يقضيَ النّاس وقتًا ممتعًا أكثَر من مرّة. وهذا النّوعُ من العملِ كفيلٌ بأن يُحزن أيّ مخلوقٍ إذا اضطرّ إلى القيام به طوالَ عمرِه.

ثقبَ الهيمْيُولِن وثقبَ، وبينما ثقبَ اعتادَ أن يحلمَ بالأشياء التي يودُّ القيامَ بها عندما يحصل أخيراً على راتِب تقاعُده.

في حالِ يجهلُ أحدٌ ما معنى التّقاعُد، فهو يعني أنّ المرءَ يستطيعُ القيامَ بما يحبُّ ويشتهي في كنفِ ما يتمنّاه قلبه من سلام، عِندما يَغدو كبيراً في السّنّ. على الأقلِّ هَكذا فسّر أقرباءُ الهِيمْيُولِن له معنَى التّقاعُد.

كانَ لديهِ عددٌ كبيرٌ جدًّا من الأقارب، مجموعةٌ عظيمةٌ وهائِلة من الهِيمْيُولِن المَرحين الذين يعشقون الثّرثرةَ، والذين درَجوا على خَبط ظهورِ بعضهم بعضًا وهم ينفجرون في الضّحكِ المُدوّي.

وهؤلاء الأقاربُ تشاركوا ملكيةَ مَدينة الملاهي، وفي أوقاتِ فراغِهم اعتادوا العزفَ على آلة التّرموبون الموسيقية أو تسلّوا بِرَمي المطرقةِ، ورَووا قصصًا مضحكةً وأفزعوا النّاسَ عمومًا. بيد أنّهم فعلوا ذلك كلّه بِنوايا حَسنة.



صاحُبنا الهِيمْيُولِن نفسُه لم يمتلِك في الواقعِ شيئًا، لأنّه كانَ على الخطِّ الجانبي، أي نصف قريبٍ فقط، وبما أنَّه لم يستطِع قطّ أن يفرضَ حُقوقَه على الآخرين بخصوصِ شيءٍ، كانَ عليه دومًا أن يُجالِس الأطفال، أن يُشغّل منفاخَ دوّامة الخيلِ الكبير، وأن يثقبَ التّذاكر مُعظم الوقتِ.

-«أنتَ وحيدٌ وليسَ لديكَ ما تفعلُه،» اعتادَ أقاربُه أن يقولوا له بأسلوبِهم الودّي. «لِذا، قد يبهجكَ قليلاً أن تمدَّ يدَ المساعدة هنا وهناك وتختلِطَ بالنّاس.»

-«لكن، أنا لستُ وحيدًا أبدًا،» حاول الهِيمْيُولِن أن يعترضَ. «لا أستطيعُ أن أجدَ الوقتَ لأكونَ كذلك. هناك دائمًا أناسٌ كثيرون جدًّا يريدون إدخالَ البهجةِ إلى قَلبي. وإذا لم تُمانعوا، أرغبُ كثيراً في...»

-«رائعٌ،» كانَ الأقاربُ يصيحون وهُم يَخبطون ظهرَه. «ذاكَ هو الأمرُ الصّحيحُ. لا شعورَ بالوحدةِ أبدًا، دائمًا في حالةِ نشاطٍ.»

تابعَ الهِمْيُولِن ثقبَ التّذاكرِ، وحلمَ بعُزلةٍ صامتةٍ ووديعةٍ، والأملُ يحدوه في أن

يشيخَ ويتقاعدَ سريعًا جدًّا.

دوّمَت الدّوامات، والتّرومبونات صَوّتت. جماعات الغافسي والهومسان والميمبل صَرخوا وزعقوا وهُم يَركبون قطارَ الملاهي الدّوّار كلّ ليلةٍ. وإدوارد الضّخمُ ربحَ الجائِزة الأُولى في تحطيم الخَزفيات، وحولَ الهيمْيُولِن الحزينِ والحالم رقص النّاس وتَصايحوا، وضَحكوا وتخاصَموا، وأَكلوا وشربوا. وشيئًا فشيئًا غَدا الهِيمْيُولِن يخشَى النّاسَ الصّاخبِين الذين كانوا يستمتِعون ويروّحون عن أنفسهم.

كانَ ينام في مَهجَعِ أطفال الهِيمْيُولِن، وهو مهجعٌ مُشرق ولطيف في النّهار، وفي الليلِ عِندما يستيقظُ الأطفالُ ويَبكون يُهدّئ من رَوْعِهم بالعزف على صندوقِ موسيقى محمولٍ.

أما ما تبقّى له من وقتِ فراغٍ فكان يمدُّ خلالَه يدَ المُساعدة أيْنما دعَت الحاجةُ في دارٍ كبيرة تعجّ بأقاربه من جَماعة الهِيمْيُولِن، وهَكذا حَظِي بالرّفقة على مدارِ السّاعة. وجميعُ مَن حَوله تَمتعوا دائمًا بمعنوياتٍ عاليةٍ، ولطالَما حدَّثوه عن كلِّ ما يُفكّرون فيه وما يُخططون له. هُم فقَط لم يمنَحوه فُرصة واحِدة ليُجيبَ بطريقةٍ مناسِبة.

-«ألَن أكبرَ في السّنِّ قريبًا؟» سأل الهِيمْيُولِن مرّة وهُم يتناولون العشاءَ.



–«تكبرُ؟ أنتَ؟» صاح عمُّه. «أنتَ بعيدٌ كلّ البُعد عن هَذا. هَيا اِبتهِج، اِبتهِج، لا أحدَ أكبر ممّا يشعرُ.»

–«لكنني أشعرُ أنني كبيرٌ في السّنّ حقًا،» قالَ الهِيمْيُولِن بنبرةٍ مُفعمَةٍ بالأملِ.

–«هُراء في هُراء،» ردَّ العَمُّ. «الليلة لَدينا وَصْلةٌ إضافيةٌ للألعاب النّاريةِ، والفرقةُ النّحاسية ستعزفُ إلى الفَجرِ.»

لكن الألعابَ النّارية لم تنطلِق قطّ، ففي ذاكَ المساء بَدأ مطرٌ عظيمٌ بالتّساقُط. واستمرَّ طوالَ الليلِ والنّهار التّالي، واليَومِ الذي يليهِ، وكذلكَ اليَوم الذي تلاه، ثمّ الأسبُوع التّالي بأكملِه.

في الحقيقة، استمرَّ هَذا المطرُ يهطلُ بغزارةٍ على امتِداد ثمانية أسابيعِ بلا انقطاعٍ. ولا أحدَ رأى في يومٍ مثيلاً له.

فقدَت مدينةُ الملاهي ألوانَها، انكمشَت، وذبلَت كما تذبل الأزهارُ. بهتَت وعَلاها الصّدأ، ثمّ بدأت تتفكّكُ قطعةً قطعةً لأنّها كانت مُشيّدةً على الرّملِ.

سكّةُ القطارِ السّريعِ تقعّرت وهي تتنهّد، ودوّامةُ الخيلِ الخشبية مضَت تدورُ بِتثاقُلٍ حول برَكٍ وأحواضٍ رمادِية كبيرة إلى أن جُرِفَت بعيدًا وهي تُطلِق رنينًا خافتًا عندَ الأنهارِ الجديدة التي شكّلها المطرُ. جميعُ الأطفالِ الصّغار، مِن جماعةِ التوفل وسكان الأحراج والهومسان والميمبل وغيرهم وقَفوا لأيام طوالٍ أمامَ النّوافِذ وأنوفُهم تضغطُ على ألواحِ الزّجاج، ينظرون إلى شهرِ تمّوز الخاصّ بهم وقد نُقِعَ بالماء، وألوانُ لَهوِهم ومُوسيقاهم تعومُ مُبتعدةً.

تداعَى بيتُ المَرايا وانهارَ مُتحوّلاً إلى ملايينِ الشّظايا الرّطبةِ، وأزهارُ الورقِ الورديةُ في حديقةِ العجائب تطايَرت بالمئاتِ ورفرَفَت فوق الحُقول. وعلى تلك المشاهِد كلّها تعالَت جَوْقةُ نحيبِ الأطفالِ.

كانوا يقودون أهاليهم إلى عتبةِ الجُنون لأنّهم لم يجِدوا شيئًا واحدًا يفعلونَه سوى التّحسّرِ على مدينةِ الملاهي المُندثِرة.

تدلَّت من الأشجار الشّرائطُ الملوّنةُ والبالونات التي فَقعَت، وامتلأ بيتُ السّعادةِ بالوَحل، والتّمساحُ برؤوسِه الثّلاثة زحفَ إلى البحرِ. تركَ خلفَه رأسَين من رؤوسه لأنّهما التَصقا بالطّين.

رأى جماعةُ الهِيمْيُولِن ذلك كلّه أشبَه بِطُرفة مُسلّية. وقَفوا إزاءَ نوافِذهم يضحكونَ ويُشيرون ويَتبادلون خَبط الظّهورِ وهم يصيحون: -«انظُروا! ها هِي ستارةُ ألفِ ليلةٍ وليلة تَختفي! انظُروا ها قَد تفكّكَت باحةُ الرّقص! هناك خمسة وَطاويط سوداء من كهفِ الرُّعب على سطحِ بيت الفيليجونك! أَلَكُم أن تتخيَّلوا!»

ثمّ قرّروا بمعنوياتٍ عاليةٍ أن يُؤسّسوا بدلاً من مدينةِ الملاهي ساحةَ تزلّج عندما يتجمّدُ الماءُ طبعًا، وحاولوا أن يُروّحوا عن الهِيمْيُولِن بوعدِه أن يتسلّم مهمّةً ثقبِ التّذاكرِ حالما تتاحُ لهم الفرصةُ لِيُسَيّروا أمورَهم كما ينبغي.

-«لا،» اِعترضَ الهِيمْيُولِن فجأةً. «لا، لا، لا. أنا لا أريدُ أن أفعلَ ذلك. أريدُ راتب تقاعُدي. أريد أن أقومَ بما أودُّ عملَه، وأريد أن أكونَ وحيدًا تمامًا في مكان ما

يلفُّه السّكونُ.»

–«لكن، يا ابنَ أخي العزيز،» قالَ أحدُ أعمامِه بدهشةٍ عظيمة، «أَتَعني ما تقولُه؟»

–«نعَم،» أجابَ الهِيمْيُولِن. «أعني كلّ كلمةٍ قُلتُها.»

–«ولماذا لم تخبِرنا من قبلُ؟» سألَه الأقاربُ الحَيارى. «لطالَما اعتقَدنا أنّكَ كنتَ تستمتعُ.»

–«لم أجرُؤ قطّ على إخبارِكم،» اعترفَ الهِيمْيُولِن.

ضحكوا جميعًا وهم يسمعون هَذا الجوابَ، ورأوا أنَّه من الطّريفِ كثيراً أن يكونَ الهِيمْيُولِن قد اضطُرّ إلى القيامِ طوال عمرِه بأعمالٍ يكرهُها، لمجرّد أنَّه كانَ عاجزاً عن فَرض رأيِه على الآخرين.

–«جيّد، والآن، ماذا تريدُ أن تفعلَ؟» سألَته خالتُه بنبرةٍ مرحةٍ.

–«أودّ أن أبنيَ لِنفسي بيتَ دُمى،» همس الهِيمْيُولِن. «أجمَل بيتِ دُمى في العالمِ، فيه غُرفٌ كثيرةٌ كثيرةٌ جدًّا، وهذه الغُرفُ ساكِنةٌ ورصينةٌ ولا يشغَلُها أحد.»

عندئذٍ ضجَّ أقارِبُه بضحكٍ شديدٍ جدًّا بحيث اضطرّوا إلى الجلوسِ. تبادَلوا





وكزاتٍ هائِلة وصاحوا معًا: «بيتُ دُمى! أسبقَ أن سمعتُم شيئًا كَهذا! قالَ بيتُ دُمى!»

وبعدَ ذلك عادوا واستغرَقوا في الضّحكِ إلى أن نفرَ الدّمعُ من عيونِهم وقالوا له: «أيّها الصّغير العزيزُ، قُم بِما يَحلو لكَ بالضّبط مهما كلّفَ الأمر! يُمكِنك أن تحصلَ على مُتنزّه الجدّةِ الكبير. هو على الأرجَح ساكِنٌ كسكونِ القَبر في الوقتِ الحاضِر. ذاكَ هو المكانُ المناسِب لِتستكشفَه وتلهوَ فيه كما يشتهي قلبكَ. نتمنّى لكَ حظًّا سعيدًا ونأملُ أن يعجبكَ!»

-«شكرًا،» قالَ الهيمْيُولِن وهو يشعرُ في سريرتِه بشيءٍ من الانكِماش. «أعرفُ أنكم تمنّيتم لي الخيرَ دائمًا.»

تلاشَى حلمُه ببيتِ الدُّمى وغرفِه الهادئة والجميلة. لقد سخرَ أقاربُه من هذا الحلمِ وفَتّتوه تفتيتًا. إنّما ذلك ليسَ ذنبهُم حقًّا. ولو أخبرهم أحدٌ أنّهم أفسدوا عليه حلمَه لشعروا بأسفٍ صادقٍ. من الخطرِ في الواقِع البوحُ بأكثر الأحلام سرّيّةً في وقت أبكَر قليلاً ممّا ينبغي.


Tove

قصدَ الهِيمْيُولِن مُتنزّه الجدّةِ القديم الذي أصبحَ ملكَه، وهو يحتفظُ بالمفتاح في جَيبه.

كانَ المتنزّه قد أُغلِق ولم يُستعمل ثانيةً قطّ منذُ أن أحرقَت الجدّةُ بيتَها بالألعابِ النّارية، وانتقلت إثرِ ذلك إلى مكانٍ آخَر مع أفرادِ عائلَتها.

حدثَ هَذا منذُ عهدٍ بعيدٍ، وكان الهِيمْيُولِن غيْر مُتيقّن تمامًا من الطّريق المُؤدّية إلى المُتنزّه.

فالغابةُ قد ازدادت تشعُّبًا، ومعالِمُ الدروبُ والمعابِر أصبحت تحتَ الماء. وبينما تقدّم يخوضُ طريقَه توقّفَ المطرُ فجأةً كما بدأ قبل ثمانيةِ أسابيع. ولم يُلاحِظ الهِيمْيُولِن توقُّفَه. كانَ مشغولاً بالتّحسُّرِ على حلمِه المفقودِ، وحزينًا لأنّه ما عاد يرغبُ في تأسيسِ بيت دُمى مطلقًا.

أخيراً صار في وسعِه أن يرى سورَ المُتنزّه، ومع أنّ بعضَه قد تداعَى لكنه ما زالَ سورًا عاليًا. وبوابتُه الوحيدةُ الصّدئةُ لا يُمكن فَتحها إلّا بصعوبةٍ بالِغة.

دخل الهِيمْيُولِن وأقفلَ البوابةَ خلفَه. فجأةً نسي كلّ ما يتعلّقُ ببيت الدُّمى. فهذه أوّلُ مرّةٍ في حياته يفتح بابًا يخصُّه وحدَه ويُغلقه وراءه. شعر أنَّه في البيت. أنَّه لا يعيشُ في بيتِ أيِّ شخص آخَر.

كانت غيومُ المطرِ تنجرفُ راحِلةً على مهلٍ مُفسحةً المجال للشّمس. وكان البخارُ يتصاعَد من المُتنزّه النَّديّ واللامع. المُتنزّه الذي انبسطَ أخضَر ومسالِمًا. لا أحد جَزّه أو شذَّبه أو كنسَه منذ زمنٍ طويلٍ... طويلٍ جدًّا. الأشجار تُريح فروعَها على الأرض، والشُّجيرات تتسلّقُ الأشجار وتتقاطَع معها، وبين الحشيشِ الغَضّ خرّ ماءُ السّواقي المتغلغلةِ في المُتنزّه، السّواقي التي شقّت لها الجدّة الطّريق في زمنٍ إقامتِها هناك. وتلك السّواقي ما عادت تُبالي بالسّقاية، بل التفتَت إلى شُؤونها فقط، بَيْد

أنَّ العديد من الجسورِ الصّغيرة بَقِيت قائِمةً على الرّغم من اختفاءِ معابِر الحديقةِ.

بتهوّرٍ غيْر مسبوقٍ سلّم الهِيمْيُولِن نفسَه إلى الصّمتِ الأخضرِ الوَدود، طفرَ يقفزُ عليه، يتمرّغ فيه ويتقلّبُ، وشعر أنّه أصغر بكثيرٍ من أيّ وقتٍ مضَى.

-«أوه، رائعٌ أن يتقاعَد المرءُ أخيراً،» فكّر. «كم أحبُّ أقاربي! والآن لستُ بحاجةٍ لأن أشغلَ بالي بِهم!»

شقّ دربَه خلالَ الحشيشِ الهائِج اللامعِ، رمى ذِراعَيه حول الأشجار، وأخيراً استسلَم للنّوم تحت أشعةِ الشّمس في فُسحة تتوسّطُ المُتنزّه. كانت تلك الفُسحة هي الموضِع الذي سبقَ أن قامَ عليه بيتُ الجدّةِ. حفلاتُ ألعابِها النّارية وَلّت منذُ عهدٍ بعيد. والأشجارُ الصّغيرةُ طلَعت حولَه، وحيثُ كانت غرفةُ نوم الجَدّة نَمت شُجَيرةُ وردٍ وارِفةٌ ومُحمّلةٌ بآلافٍ من ثِمار الوردِ الحمراءِ.

أسدلَ الليلُ سِتاره، فشعَّت في السّماء أعدادٌ هائلةٌ من النّجوم الكبيرة، وهذا جعل الهِيمْيُولِن يحبُّ مُتنزّهه أكثر فأكثر. مُتنزّه فسيحٌ وغامِض، يمكنُ أن يفقدَ المرء طريقَه فيه ومع ذلك يعرفُ أنّه ما زالَ في البيت.

تجوّلَ في الأنحاء لساعاتٍ.

عثرَ على بستانِ فاكِهة الجدّةِ القديم حيثُ تبعثرَ التّفاحُ والإجاصُ على العشب، وللحظةٍ فكّر: «خسارة! لا يُمكِنني أن آكلَ نصفَها. ينبغي أن...» ثمّ نسيَ الفكرةَ وقد سحرَته سكينةُ العُزلة.

شعر أنَّه مالكُ نور القمرِ على الأرض، ووقعَ في غرام أكثَر الأشجار جمالاً، صنعَ أكاليل الزّهورِ وعلّقها حولَ رقبتِه. في ليلته الأُولى تلك لم يَكد قلبُه يطاوعُه ليِغمضَ جَفنيه.

في الصّباح، سمع الهِيمْيُولِن رنينَ الجرسِ القديم الذي ما زالَ مُعلّقًا عند البوابة.

انتابَه القلق. هناك شخصٌ في الخارجِ ويريد الدّخولَ؛ شخص يريدُ شيئًا منه. بصمتٍ زحفَ بينَ الشُّجيرات على طول السّور وكَمَنَ من غيْرِ أن يُصدِرَ حسًّا. تعالَى رنين الجرس ثانيةً. مطَّ الهِيمْيُولِن رقبتَه ورأى طفلاً من أطفال الهومسان ينتظرُ خارجَ البوابةِ.

-«اِذهَب من هنا،» صاح الهِيمْيُولِن بعصبيةٍ. «هَذه أرضٌ خاصّة. أنا أسكنُ هنا.»

-«أعرِفُ،» أجابَ الهومسان الصّغير. «أرسَلَني أقارِبُكَ إليكَ مع بعض الطّعامِ.»

-«أوه، فهمتُ. هَذا كَرمٌ مِنهم،» ردّ الهِيمْيُولِن بنبرةٍ أكثَر ارتياحًا. فتح البوابة، أخذَ السّلّةَ من الهومسان، ثمّ عادَ وأغلقها بسرعةٍ. بقيَ الهومسان الصّغير حيثُ هو لفترةٍ إلّا أنّه لم يَقُل شيئًا.

-«وكيفَ هي أحوالكُم؟» سأله الهِيمْيُولِن بصبرٍ نافِد وقد وقف يتململُ



والشّوقُ يتأجّجُ فيه ليعودَ إلى مُتنزّهه.

-«أحوالُنا سيئةٌ،» أجابَ الهومسان بلا مُوارَبة. «نحن في حالةٍ مُزرية، كلُّنا. نحن الصّغارُ. خَسرنا مدينةَ الملاهي. نحن مَفجُوعون.»

-«أوه،» غمغمَ الهِيمْيُولِن وهو يحدّقُ في قدمَيه. لم يرغَب في أن يدفعَه أحدٌ إلى التّفكير في أشياءٍ كئيبةٍ، لكنه كانَ مُعتادًا على الاستماعِ بحيثُ عجزَ أيضًا عن الابتعادِ.

-«لا بُدَّ من أنّك أنتَ أيضًا مفجوعٌ،» قالَ الهومسان بتعاطُفٍ. «درجْتَ على أن تثقبَ التّذاكِر. وفي حال كانَ المرءُ صغيراً جدًّا ورثّ الملابِس ومُتسخًا عَمدتَ إلى ثقبِ التّذكرة من طرفِها. وعلى هَذا النّحو كانَ في وسعِنا أن نستعملَها مرّتين أو ثلاث مرّات.»

-«نَظري لم يَكُن يُسعفني كثيراً،» برّرَ الهِيمْيُولِن. «ألا ينتظرونَك في البيت؟»

هزّ الهومسان رأسَه ومع ذلك بقيَ واقفًا. دَنا من البوابةِ ودفعَ أنفَه بينَ قضبانِها. «يجبُ أن أخبركَ،» همس. «لدينا سرٌّ.»

ندّت عن الهِيمْيُولِن حركةٌ تنمُّ عن الخوف، لأنّه كَرِه أسرارَ الآخرين وثِقتهم به. لكن الهومسان تابع بحماسةٍ: «أنقَذْنا مُعظمَها. نحتفظُ بها في حَظيرة الفيليجونك. لا يُمكن أن تصدّقَ كم اشتغلنا. أنقَذْنا وأنقَذْنا. تَسلّلنا إلى الخارج في الليل تحتَ المطر وانتَشَلنا الأشياءَ من الماء ومن تحتِ الأشجار، وجَفّفناها وأصلَحناها، والآن أصبحَت تقريبًا في حالٍ مقبولةٍ!»

-«ماذا؟» سأل الهِيمْيُولِن.

-«مدينةُ الملاهي، طبعًا!» صاحَ الهومسان. «أو على الأصحّ أكبَر قَدْرٍ مُمكنٍ ممّا عثرنا عليه، القطعُ جميعُها التي تبقّت! أليس هَذا بديعًا! وسنطلبُ من أقاربِكَ أن

يعيدوا تَجميعها لنا، وحينها يُمكنكَ أن ترجعَ وتثقبَ التّذاكر.»

-«هه،» هَمهَم الهِيمْيُولِن ووضع السّلّةَ على الأرض.

-«رائعٌ، أليسَ كذلك! جعل هَذا عَينكَ تَطْرِف،» قالَ الهومسان وضحكَ، لوّحَ بيدِه مودّعًا وانطلقَ.

في الصّباح التّالي وقف الهِيمْيُولِن ينتظرُ بقلقٍ عند البوابةِ. وعندما جاء الهومسان ومعَه سلّةُ الطّعام صاحَ في الحال: «حسنًا؟ ماذا قالوا؟»

-«رَفضوا،» أجابَ الهومسان باكتئاب. «يُريدون أن يشيّدوا باحةَ تزلّجٍ بدلاً من ذلك. ومُعظمُنا ينامُ في الشّتاء، وعلى أيِّ حالٍ من أينَ لنا الزلّاجاتِ...»

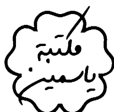
-«هَذا سيئ جدًّا،» قالَ الهِيمْيُولِن وهو يتنفّسُ الصُّعَداء.

لم يُجِب الهومسان، كانَ خائِبَ الأمل. اكتفى بوضعِ السّلّةِ على الأرض واستدارَ عائِدًا أدراجَه.

-«أطفالٌ مساكين،» فكّر الهِيمْيُولِن للحظةٍ. «هه، حسنًا، حسنًا.» ثمّ بدأ بعدَ ذلك يرسمُ مُخطّط سقيفةٍ أراد أن يبنيَها على أطلالِ بيت الجدّةِ.

عملَ الهِيمْيُولِن على سقيفتهِ طوال النّهارِ واستمتع استمتاعًا هائِلاً. لم يتوقّف إلّا عندما أصبحت الدّنيا أظلمَ من أن يرى شيئًا، ثمّ استسلمَ للنوم مُنهكًا وسعيدًا، ونامَ إلى وقتٍ مُتأخّر في الصّباح التّالي.

عندما ذهبَ إلى البوابة ليجلِبَ سلّةَ طعامِه، كانَ الهومسان هناك. على غطاءِ السّلةِ وجدَ رسالةً وقّعها عِدّةُ أطفالٍ.



-«يا ثاقِب تذاكِر مدينة الملاهي العَزيز،» قرأ الهِيمْيُولِن. «يُمكنكَ الحُصولُ عليها لأنّكَ طيّبُ القلبِ، وربّما تسمحُ لنا أحيانًا أن نلهوَ معكَ لأنّنا نُحبّكَ.»



لم يفهَم الهِيمْيُولِن كلمةً واحِدة، لكن شَكًّا مروعًا بدأ يَعتلجُ في صدرِه.

ثمّ رأى ما رآه. خارجَ البوابة كَوّمَ الأطفالُ ما استطاعوا إنقاذَه من مدينة الملاهي. وكان ذلك كثيراً. مُعظمُ القِطعِ مكسّرةٌ ومُخلخلةٌ ومجمّعةٌ ثانيةً بطريقةٍ غيْر سليمةٍ. بدَت الكومةُ بمُجملِها غريبةَ الشّكل. مجموعةٌ عديمةُ النّفعِ ومُتنوّعةٌ من الألواحِ والخَيْش والأسلاكِ والأوراقِ والحَديد الصّدِئ. وكلُّها عايَنت الهِيمْيُولِن بحزنٍ وبلا أملٍ، وهو بدورِه عايَنها برعبٍ.

ثمّ هربَ إلى مُتنزّهه وانكبّ على متابعةِ بناءِ سقيفته.

عملَ وعملَ، ولا شيءَ سار كما يَنبغي. كانت أفكارُه في مكان آخَر، وفجأةً خرّ السّقف، وتداعَى الكوخُ وهَوى مُستويًا بالأرض.

-«لا،» صاحَ الهِيمْيُولِن. «لا أريدُ أن أفعلَ. ما تعلّمتُ أن أقولَ لا إلّا من فترةٍ قصيرةٍ. أنا مُتقاعِد. أفعلُ ما يَحلو لي، ولا شيءَ آخَر.»



كرّرَ قولَه هَذا عِدّة مرّات، بِنبرةٍ مشحونةٍ بمزيدٍ ومزيدٍ من الوَعيد. ثمّ نهضَ على قدمَيه قطعَ المُتنزّه إلى البوابة، فتحَها، وبدأ يجرُّ الخُردةَ البائسة والأنقاضَ إلى الدّاخل.

كانَ الأطفالُ جاثِمين على السّور العالي حولَ المُتنزّه، كأنّهم طيورٌ رماديّة، لكنهم لم يَنبسوا ببنتِ شَفةٍ.

بين حينٍ وحينٍ يهمسُ أحدُهم: «ماذا يفعلُ الآن؟»

-«صَه،» يقول آخر. «هو لا يحبُّ الكلامَ.»

علّقَ الهيمْيُولِن بعضَ الفوانيس والأزهارِ الورقية على الأشجار، ونحّى جانبًا جميعَ الأجزاءِ المُتكسّرةِ والمُخلخَلة. وأخذ يجمعُ شيئًا كانَ مرّةً دوّامة خيلٍ. لم تتطابَق الأجزاء مع بعضِها كما ينبغي، وبدا أنَّ نصفَها مفقودٌ...

-«لا فائدة،» تذمّرَ بصوتٍ غاضِبٍ. «ألا تَرون؟ هَذه مجرّدُ نفايةٍ ولا شيءَ أكثَر! لا! لا أريدُ أيَّ مُساعدةٍ مِنكم.»

بلغَت أُذنَيه دمْدَمة تشجيعٍ وتعاطُف من ناحيةِ السّور، لكنه لم يسمَع كلمةً واحدةً.

بدأ الهيمْيُولِن يحوّلُ دوّامة الخيلِ إلى ما يُشبه البيتَ. ووضَع الخيولَ على العشب والبجعَ في السّاقية، قلب ما تبقّى من الدّوّامةِ رأسًا على عَقب، واشتغلَ والدّمُ مُتجمّدٌ في عروقِه. «بيتُ دُمى!» فكّر بمرارةٍ. «ما نتجَ عنه في النّهاية أشرطةٌ مُلوّنةٌ كثيرةٌ وبعضُ التوافهِ الغثّةِ وكومةُ غُبارٍ وضجيجٌ وضَوْضاء، تمامًا كما جرَت عليهِ الحالُ طوالَ عمري...»

ثمّ رفع رأسَه وصاحَ: «على ماذا تَنظرون؟ اذهبوا بسرعةٍ إلى أقاربي وأخبِروهم أنّني لا أريدُ طعامًا غدًا! بدلاً منه يُمكنهم أن يُرسلوا لي كميّةً من المساميرِ ومِطرقةً وشموعًا وحِبالاً وبعضَ الألواحِ بسماكةِ بوصتَين، ويُستحسَنُ أن يفعلوا ذلك فوراً.»



ضحك الأطفالُ وركضوا.

-«أَمَا قُلنا له،» صاح أقارِب الهِيمْيُولِن وتبادلوا خَبط ظُهورهم. «يحتاج إلى أن يشغلَ نفسَه بعملٍ ما. الصّغيرُ المسكينُ يشتاقُ إلى مدينةِ الملاهي.»

وهَكذا أرسلوا له ضِعفَ ما طلبَه، وعلاوةً على ذلك أرسلوا له طعامًا لأسبوعٍ، وعشرَ ياردات من المُخمَل الأحمَر ولفافاتٍ من الورقِ الفِضيّ والذهبيّ، وصندوقَ موسيقى في حالِ أرادَه.

-«لا،» صاحَ الهِيمْيُولِن. «لا صناديقَ موسِيقى. لا شيءَ يُصدِرُ ضجّةً.»

-«بالطّبعِ لا،» قالَ الأطفالُ وتركوا صندوقَ الموسيقى في الخارِج.

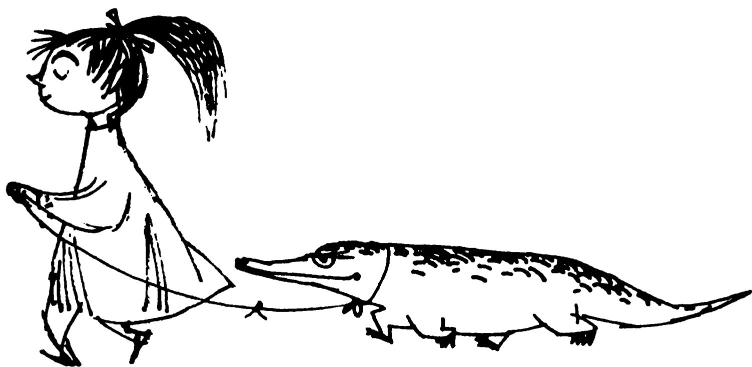
كدَّ الهِيمْيُولِن في العمل، بَنى وعَمّر وشَيّد. وبينما هو يفعلُ بدأ يحبُّ الشّغلَ رغمًا عن أنفِه تقريبًا. عاليًا في الأشجار لمعَت آلافٌ من شَظايا زُجاج المَرايا، تتأرجحُ

في الهواء مع الأغصان. على قممِ الأشجار صنعَ مقاعِد صغيرةً وأعشاشًا مُريحةً حيث يُمكن أن يجلس النّاسُ ويشربوا العصيرَ من غيْرِ أن يراقبَهم أحدُ، أو يُمكن أن يناموا أيضًا. وعلى الفروعِ المَتينة علّقَ الأراجيحَ.

كانت سكّةُ قطار الملاهي صعبةَ التّركيب، وتوجّب ألّا يُشيّدَ سوى ثلثِها لأنّ العديدَ من قِطعِها مفقودٌ. بَيْدَ أنّ الهِيمْيُولِن عزّى نفسه بالتّفكير في أنَّ أحدًا لن يشعرَ بالهَلَعِ وهو يركبُ القطار، وبالتّالي لن يصرخَ وهو على مَتنه. هَذا إضافةً إلى أنّه في محطّتهِ الأخيرةِ يُلقي راكِبَه في السّاقية، وفي ذلك مرحٌ ما بَعده مرحٌ بالنّسبةِ إلى أكثَر النّاس.

لكن سكّةَ الحديدِ كانت أصعبَ من أن يكافِحَ الهِيمْيُولِن في تركيبها وحدَه. فعندما حاولَ تثبيت أحدِ طرفَيها تداعَى الطّرفُ الآخَر، وفي النّهايةِ صاح باستياءٍ: «فَليساعِدني أحدُكم! لا يُمكنني أن أعملَ في وقتٍ واحدٍ عشرةَ أشياء معًا.»

قفز الأطفالُ من على السّور وأقبَلوا يركضون.





بعدئذٍ ساعدوه في تثبيتِ السّكّةِ. وبما أنّ أقارِبَ الهِيمْيُولِن أرسلوا كميةً وافِرةً من الطّعامِ، كانَ في وسعِهم أن يَبقوا طوالَ النّهار في المُتنزّه.

كانوا يَعودون في المساء إلى بيوتِهم، ومع شروقِ الشّمسِ يقفون عندَ البوابة وينتظرون أن تُفتحَ لهم. وفي صباحِ أحدِ الأيّامِ أحضَروا معهم التّمساحَ مربوطًا بحبلٍ.

-«أنتُم واثِقون من أنّه سيبقى هادئًا؟» سألهم الهِيمْيُولِن بصوتٍ مُرتاب.

-«واثِقون تمامًا،» أجابَ الهومسان. لن يقولَ كلمةً. هو هادئٌ جدًّا ولطيفٌ الآن بعد أن تخلّصَ من رأسَيه الآخَرين.»

وفي يوم آخَر عثر ابنُ الفيليجونك على أفعَى أَصَلةٍ كبيرةٍ في موقِد الخَزف. وبما أنّها تصرّفَت بوداعةٍ أُحضِرت فوراً إلى مُتنزّه الجدّةِ.

تهافتَ النّاسُ على جَمعِ كلّ ما صادفوه من أشياءٍ غَريبة لِمدينة ملاهي الهِيمْيُولِن،

أو أرسلوا له الكعكَ والأباريقَ وستائِر النّوافِذ وحلوى التّوفي وما إلى ذلك. أصبح إرسالُ الهدايا مع الأطفال في الصّباحِ بِدعةً، وقَبِلَ الهيمْيُولِن كلّ ما لا يُصدِر ضجّةً.

لكنّه لم يسمح لأحدٍ آخَر غير الأطفال بالدّخولِ.

أصبح المُتنزّه أروعَ فأكثَر روعةً. في وسطهِ سكَن الهِيمْيُولِن في حَلبةِ دوّامة الخيل. كانت مُبهرجة ومائِلة، تُشبه أكثر ما تُشبه كيس حلوى تُوفي جعّدَه شخصٌ ما ورماه.

وداخِلها انبثَقت شُجيرة الوردِ المُحمّلةُ بالثّمارِ الحمراءِ.

ثمّ، في مساءِ يومٍ جميل ومُعتدل أُنجِز العملُ. أُنجز نهائيًا بما لا يقبلُ الشّك، وللحظةٍ هَيمن الحزنُ الناجِمُ عن اكتِمالِ المُهمّة على الهِيمْيُولِن.

كانوا قَد أضاؤوا الفوانيسَ ووقفوا يتأمّلون ما صَنعوا.

لمعَ زجاجُ المرايا والورقُ الذّهبيّ والفضيّ على الأشجار العظيمةِ القاتِمة، كانَ كلّ شيءٍ جاهزًا وفي حالةِ استعدادٍ؛ الأحواضُ، المراكبُ، الأنفاقُ، قطارُ الملاهي، جناحُ العصير، الأراجيحُ، لوحاتُ رمي السِّهام، الأشجارُ الصّالحةُ للتسلّقِ، صناديقُ التّفاح...

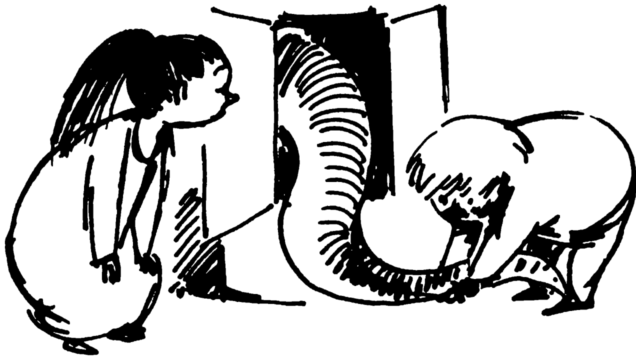
-«هَا أنتم أخيراً،» قالَ الهِيمْيُولِن. «تذكّروا فقَط أنّ هَذه ليست مدينةُ الملاهي، بَل هو مُتنزّه السّكينةِ.»

ألقَى الأطفال أنفسَهم في أحضانِ الرّوعةِ التي ساعدوا على بنائِها. لكن الهومسان التفتَ وانبرى يسألُ: «أَلَا تُبالي لأنّ لا تذاكرَ لديكَ لتثقبها؟»

-«لا،» أجابَ الهيمولين. «أنا سأثقبُ الهواءَ في جميعِ الأحوال.»

دخل إلى دوّامةِ الخيل وأضاءَ قمرَ حديقةِ العجائِب. ثمّ تمدّدَ على أرجوحةِ





الفيليجونك التي من الشَّبكِ، واستغرَق يتأمّلُ النّجومَ من فتحةٍ في السّقف. في الخارجَ كانَ السّكونُ يعمُّ المكان. ولم يستطِع أن يسمعَ شيئًا سوى خريرِ السّاقيةِ الأقرَب وريح الليلِ.

فجأةً نهشَ القلقُ الهِيمْيُولِن. اعتدلَ يصيخُ السّمعَ جيدًا. لم يسمَع صوتًا واحدًا.

-«أتراهُم لا يَستمتِعون؟» فكّر بامتعاضٍ. «ألا يقدِرون أن يمرحوا من غيْر أن يُفجِّروا رؤوسَهم بالصّياح... أغَادروا إلى بيوتهم؟»

قفزَ مُعتليًا صندوق غافسي القديم، حشر رأسَه في فتحةٍ في الجدار. لا، لم يُغادِروا إلى بيوتهم. كانَ المُتنزّه يمورُ ويَغلي بحياةٍ سرّيةٍ سعيدةٍ. أمكَنه أن يسمعَ صوتَ خَوضٍ في الماءِ، وصدى ضحكاتٍ مكتومةٍ، وخبطًا خافتًا ووكزًا، ووقعَ أقدامٍ رشيقةٍ في جميع الأنحاءِ. نعَم، إنّهم يَستمتعون.

-«غدًا،» فكّر الهِيمْيُولِن، «غدًا سأُخبرهم أنّهم يُمكن أن يضحكوا، ويُمكن

أيضًا أن يُدندِنوا قليلاً إذا شعروا برغبةٍ في ذلك. لكن ليسَ أكثَر من هَذا. حتمًا لا.»

نزلَ وعاد إلى أرجوحتِه. وسرعانَ ما نام هانئَ البالِ لا يُقلِقه شيءٌ.

خارجَ السّور، عند البوابةِ المُوصدة، وقف أحدُ أعمامِ الهِيمْيُولِن يتلصّص من بين قضبانِها، لكنه لم يلمَح إلّا القليلَ.

-«لا يَبدو لي أنّهم يَحظون بالكثيرِ من التّسلية،» فكّر. «إنّما على كلّ شخصٍ أن يفعلَ في الحياة ما يَقدِرُ عليه. وقريبي المسكينُ هَذا لطالما كانَ غريبَ الأطوار بعضَ الشيء..»

ثمّ أخذَ معه إلى البيتِ صندوق الموسِيقى لأنّه كان يحبُّ الاستماع للأنغامِ.





الطّفلةُ الخفيّةُ



في مساءٍ قاتمٍ وماطِر جلست عائلةُ المومين حول طاولة الشّرفة تفرزُ حصادَ اليوم من الفُطر. كانتِ الطّاولةُ الكبيرة مُجللةً بالجرائد، وفي وسطها انتصب مصباحُ الكيروسين المُضاء. بَيْدَ أنّ زوايا الشّرفة شملَها الظّلامُ.

-«عادت ماي إلى التقاطِ أعوادِ الفلفلِ ثانيةً،» قالَ بابا مومين. «في السّنةِ الماضيةِ جمَعَت الفُطر السّامّ.»

-«نأملُ أن تلتفتَ في الخريفِ القادِم إلى التقاطِ الفُطر الصّالح للأكل،» قالت ماما مومين. «أو على الأقلّ أيّ شيءٍ ليس سامًّا من مُجرّد لمسِه.»

-«تمنّوا الأفضلَ وتحضّروا للأسوأ،» علّقَت ماي مع ضحكةٍ خافِتة.

تابَعوا عملَهم في جوٍّ من الصّمت المُسالِم.

فجأةً تناهى إليهم صوتُ طَرقٍ خفيفٍ على زُجاج نافِذة الباب، ومن غيْر انتظارِ الجواب أطلَّت تو- تيكي من الباب وهي تنفضُ عن معطفِها الواقي ماءَ المطر، دخلَت وترَكت الباب مفتوحًا ثمّ صاحت في الظّلام: «حسنًا، تعالي!»

-«مَن معكِ؟» سألها مومين ترول.

-«إنّها نِني،» قالت تو- تيكي. «نعَم، اسمُها نِني.»

وقفَت تنتظر عند البابِ المفتوح لكن أحدًا لم يدخُل.

-«أوه، لا بأس،» قالت تو- تيكي وهزّت كتفَيها. «ما دامت تشعرُ بالخجل يُستحسَن أن تبقى في الخارج قليلاً.»

-«سيُغرقُها المطر،» قالت ماما مومين.

-«لعلّ هَذا لا يهمّ كثيراً عندما يكون المرءُ خفيًّا،» قالت تو- تيكي وجلسَت إلى الطّاولة.

توقّفَت العائلةُ عن العمل وانتظرَت تفسيراً منها.

-«أنتم جميعًا تعرفون طبعًا أنّ النّاس إذا سيطرَ عليهم الخوفُ الشديدُ يُصبحون أحيانًا غيْر مَرئِيين،» وضّحت تو- تيكي وهي تبتلعُ حبّتَين صغيرتَين من بَيْض الفُطر بدا شكلُهما مثل كُريات الثّلج. «حسنًا، هَذه النّني تعرّضَت للخوف بطريقةٍ غيْر مألوفةٍ على يدَي امرأةٍ كانت تعتني بها لكن لا تُحبُّها حقًّا. قابلتُ هَذه السّيِّدة، وهي فظيعةٌ. ليسَت من النّوع الغاضِب المحتدّ، كما قد يخطرُ لكُم، حيثُ إنّ هَذا يُمكن أن يكون مفهومًا. لا، هي من النّوع الذي يتهكّمُ ببرودٍ قاتِلٍ.»

-«ما مَعنى التّهكُّم؟» سألها مومين ترول.

-«حسنًا، تخيّل أنّكَ تنزلِق على كومةِ فُطر مُتعفّن، ثمّ تستقرُّ بعدَها على سلّةٍ من الفُطر الصّالِح المُلتقَط حديثًا،» قالت تو- تيكي. «البَديهي بالنّسبةِ إلى أمّكَ أن تغضبَ. لكن لا، تلك السّيّدةُ لا تفعَل. بدلاً من ذلك تقول لكَ ببرودٍ رهيبٍ: أرى أن هَذه هي فكرتُكَ في الرّقص الرّشيق، لكنني أكون شاكرةً إذا لم تفعل هَذا في طعام النّاس. نعَم شيءٌ من هَذا القَبيل.»

-«يا للفظاعَةِ،» علّقَ مومين ترول.

-«ها، أليس هَذا صحيحًا؟» قالت تو- تيكي. «تلك هي الطّريقةُ التي تنتَهِجُها في كلامِها. تتهكَّمُ طوالَ الوقتِ بلا توقّفٍ، تفعلُ ذلك يوميًا بلا كَللٍ ولا



مَللٍ. وفي النّهايةِ بَدأت أطرافُ الطّفلةِ تشحبُ وتبهتُ، إلى أن ما عاد يُرى منها إلّا القليلَ فالأقلّ. يوم الجمعةِ الماضي ما عادَ في وسعِ أحدٍ أن يراها مُطلقًا. سلَّمَتها تلك المخلوقةُ لي وقالت إنّها لا تستطيع أن تعتنيَ بأقارِب لا تراهُم.»

-«وماذا فعلتِ أنتِ لتلك المرأة؟» سألتها ماي بعَينين جاحِظتين. «أَسَحقتِ رأسَها؟»

-«هَذا لا ينفع مع النّوع المُتهكِّم،» أجابت تو- تيكي. «اصطحبتُ نِني معي إلى البيت طبعًا. وأحضرتُها الآن إلى هنا لِتساعدوها لعلّها تعود مَرئيةً من جديد.»

سادت المكانَ فترةُ صمتٍ قصيرةٌ. لم يُسمع خلالَها سِوى وَقع ضرباتِ المطر

وهي تسقطُ على سطح الشّرفةِ.

حملقَ الجميع في تو- تيكي واستغرقوا هُنيهةً في التفكير.

-«أَتتكلّمُ؟» اِستفسرَ بابا مومين أخيراً.

-«لا. لكن تلكَ المرأةَ علّقَت جرسًا فِضيًّا صغيراً في رقبتها لِيعرفَ المرءُ أين هي.» أجابت تو- تيكي ثمّ نهضَت وفتحَت الباب، وصاحَت في الظّلامِ: «تعالَي نِني.»

زحفَت من الحديقةِ رائحة الخريفِ اللطيفةُ، وألقَى مُربّعٌ من الضّوء نفسَه على العُشب المُشبعِ بالماء. بعد قليلٍ سمعوا رنينًا خافتًا في الخارج، مُتلَكئًا نوعًا ما. صعدَ الرّنينُ الدّرجَ وتوقّف. فوق الأرضيةِ بمسافةٍ صغيرة رأَوا جرسًا فضيًّا صغيراً بشريطٍ أسوَد مُعلقًا في الهواء. بَدا لهم أنَّ رقبةَ نِني نحيلةٌ جدًّا.

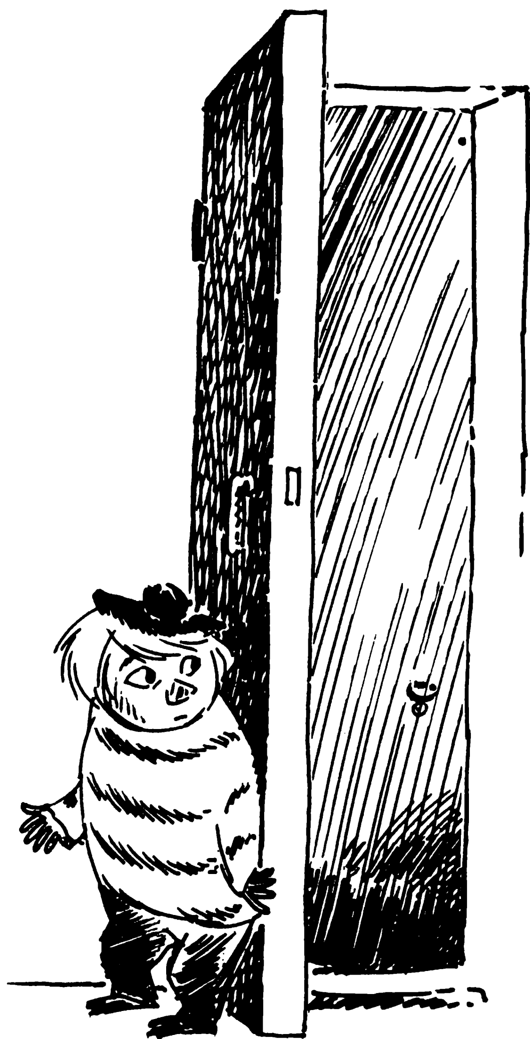
-«لا بأس، تعالَي،» قالت تو- تيكي. «هَذه هي عائلتُكِ الجديدة. هُم أحيانًا يتصرَّفون بِسخفٍ، لكنهم بالإجمالِ لُطفاء.»

-«أعطوا الطّفلةَ كرسيًّا،» قالَ بابا مومين. «أَتَعرفُ كيف تفرزُ الفُطر؟»

-«أنا في الواقع لا أعرفُ شيئًا أبدًا عن نِني،» أجابت تو- تيكي. «فقَط جلَبتُها إلى هنا وأخبرتُكم بما أعرفُه. والآن لَدي بَعض الأشياءِ التي تستدعي منّي الاهتمامَ. تعالَوا إلى الزّيارة يومًا ما، اِفعلوا رجاءً، وأعلِموني كيف تتقدَّمون معها. إلى اللقاء.»

عندما غادرت تو- تيكي جلَست العائلة صامتةً تمامًا، تنظر إلى الكرسي الشاغرِ والجرسِ الفِضيّ.

بعد فترةٍ ارتفعَت حبّةُ فُطر ببطءٍ من الكَومة التي على الطّاولةِ. نظّفَتها يَدان خَفيّتان من الشّوائِب والتّراب، ثمّ قُطعَت الحبّة، والقطعُ مالَت وحطّت في الطّشْت.



وبعدَها حلَّقت حبّةُ فُطر أخرى فوقَ الطّاولة.

-«هَذا مُثيرٌ!» قالت ماي مبهورةً. «حاوِلوا أن تعطوها شيئًا تأكلهُ. أودُّ أن أعرفَ إذا كُنّا نستطيع رؤيةَ الطّعام عندما تبتلعهُ.»

-«ماذا يفعلُ المرءُ لِيجعلَها مَرئيةً ثانيةً؟» تساءل بابا مومين بقلقٍ. «أَيَجبُ أن نأخذَها إلى الطّبيب؟»

-«لا أعتقدُ،» أجابت ماما مومين. «أظنُّها تريدُ أن تبقى خفيّةً لفترةٍ. قالت تو- تيكي إنّها خجولةٌ. يُستحسَن أن نتركَ الطّفلة على حالِها إلى أن تُسفِر الأمور عن شيءٍ ما.»

وعلى هَذا استقرَّ بهم القرارُ.

صدفَ أن كانت العليةُ الشّرقيةُ شاغِرةً، فأعدَّت ماما مومين لِنِني سريرًا هناك. رنَّ الجرس الفِضيّ وراءَها على الدّرج، وذكَّرَ ماما مومين بالقطّة التي عاشَت مرّةً معهم. إلى جانب السّرير وضعَت تفاحًا وكوبَ عصيرٍ وثلاث قطعٍ من التّوفي المُقّلم؛ التّوفي الذي يُعطى للجميع عندما يحينُ وقتُ النّوم.

ثمّ أشعلَت شمعةً وقالت: «نامي جيدًا الآن يا نِني. وتأخّري في النّهوض كما تَشائين. سيكون هناك شاي في الصّباحِ متى ما أردتِ. وإذا تملّكَكِ شعورٌ غريبٌ أو رغبتِ في شيءٍ ما عليكِ إلّا تنزلي وتَرّني جرسَكِ.»

رأت ماما مومين اللحافَ يرتفعُ لِيُشكّل كومةً صغيرة. وظهرَ في الوسادةِ تَجويفٌ. عادَت إلى غرفتها في الطّابقِ الأرضي وبدأت تبحثُ في مُلاحظات جدّتِها القديمةِ عن العِلاجات المنزلية النّاجعة. العينُ الشّريرة، الكآبةُ. نزلاتُ البرد. لا. لم يَبد أنّ هناك شيئًا مناسبًا. لا بَل هناك. عند نِهاية دفَتر المُلاحظات رأت سطورًا مُتعرِّجة كُتِبت وقت أصبحت يدُ الجدّةِ ترتعشُ قليلاً. «إذا بدأ النّاسُ يتلاشون وتصبحُ



رؤيتهم صعبةً...» جَيّد. قرأَت ماما مومين الوصفةَ المُعقّدة قليلاً، وبادَرت في الحال إلى مزجِ الدّواءِ لِنني الصّغيرةِ.

أقبلَ الجرسُ يرنُّ في الطّابِق الأرضي، خطوةً خطوةً، مع مُهلة وجيزةٍ بين خطوةٍ وأخرى. بقيَ مومين ترول ينتظرُه طوالَ الصّباح. لكن الشّيءَ المُثير لم يَكُن الجرس الفِضيّ. الشّيءُ المُثير كانَ القدمَين. رأى قَدمي نِني تنزلان الدّرجَ. قدمان صَغيرتان بِأصابعَ مُنمنَمة ومَعقوفة بطريقةٍ تَشي بقلقِ صاحِبتها. القدمان فقَط، ولا شيءَ آخر. بدا الأمرُ استثنائيًا وغيْر واقِعي.

تراجعَ مومين ترول إلى ما وراء الموقِد الخَزفي وحدّق مسحورًا بالقدمَين اللتَين مرّتا به في طريقهما إلى الشّرفةِ. رآها تصبُّ لنفسها الشّاي. ارتفع الكوبُ في الهواء وغاصَ عائِدًا إلى الطّاولة ثانيةً. أكلَت كسرةَ خبزٍ وزبدة ومُربّى. ثمّ انجرفَ الكوبُ والوِعاء إلى المطبخ، غُسِلا ووُضِعا في الخزانة. نعَم، كانت نِني طفلةً مُرتّبة جدًّا.

هرعَ مومين ترول إلى الحديقة وصاح: «ماما، لديها قَدمان! يُمكنكِ أن تري قدمَيها!»

-«هَذا ما اعتقدتُه،» هَمهَمت ماما مومين التي جثمَت على شجرةِ تفاحٍ تفكّر. «كانت جدّتي تعرفُ شيئًا أو شيئَين. وهذا يعني أنّنا على المَسار الصّحيح بما أنّ الدّواء بدأ يُؤتي مفعولَه الآن.»

-«رائعٌ،» هتف بابا مومين. «والأفضلُ يأتي عندما تُظهِرُ أنفَها في يومٍ ما. يُحزنني أن أخاطبَ أناسًا لا أراهم ولا يُجيبونني أبدًا.»

-«صَه يا عزيزي،» قالت ماما مومين مُحذّرةً، إذ لمَحت قدمَي نِني تقفان على العشبِ بين التّفاح المُبعثَر على الأرض.

-«مرحبًا نِني،» صاحت ماي. «نمتِ مثلَ خنزير. متى تُظهرين لنا خُرطومكِ؟ لا بُدَّ من أنّكِ مُخيفةُ الشكلِ ما دُمتِ تريدين أن تكوني خَفيّةً.»

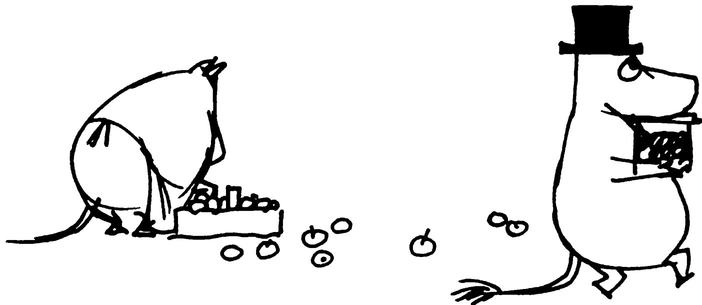
-«اسكُتي، هَذا سيُؤذيها،» همسَ مومين ترول. ثمّ جرى إلى نِني وقال: «لا تكترثي لما تقولُه ماي. هي صعبةُ المِراس ومُحبّة للهِزار. أنتِ بأمانٍ معنا هنا حقًا. ولا تفكّري في تلك المرأةِ الرّهيبة. لا يُمكنها أن تأتيَ إلى هنا وتأخذَكِ...»

في غضونِ لحظةٍ بهتَت قدما نِني وأصبح تَمييزُهما عن العشب مُتعذّرًا تقريبًا.

-«أنتِ سخيفةٌ يا صغيرتي،» قالت ماما مومين لماي. «لا يُمكن أن تُذكّري الطّفلةَ بهذه الأمورِ في غُدوّكِ ورواحكِ. اِهتمي بالتقاط التّفاح الآن وكُفّي عن الهُراء.»

اِنكبّوا جميعًا على التقاطِ التّفاح.

بعد فترةٍ عادت قدما نِني إلى الظّهور، وراحتا تتسلّقان إحدى الأشجارِ.



كانَ صباحًا خريفيًّا جميلاً، ومع أنّ البردَ لسعَ أنوفَهم في الأماكنِ الظّليلة، أشاعَت الشّمسُ الشّعورَ بالصّيف تقريبًا. كانَ كلّ شيء مُبللاً بأمطارِ الليل، والألوانُ ظهرَت نقيّةً وواضِحة. عندما التُقِط التّفاح من الأرض، أو هُزّت الأشجارُ ليسقطَ، حمل بابا مومين أكبرَ مِكبَس تفاح إلى الحديقة وبدأوا يُعدّون معجونَ التّفاح.

أدار مومين ترول المِقبضَ، ولقّمَت ماما مومين المِكبَس بالتّفاح، وبابا مومين نقلَ أوعيةَ المعجون إلى الشّرفة. أما ماي الصّغيرة فجلسَت على الشّجرة تنشد أغنيةَ «التّفاحة الكبيرة.»

فجأة سمعوا صوت تهشُّم.

عند ممرِّ الحديقة رأوا كومةً كبيرة من معجونِ التّفاح وقد اختلطَت بشظايا الزّجاجِ. وقُربَ الكومة لمحوا قدمَي نِني وهما تَبهتان بسرعةٍ.

-«أوه،» هتفَت ماما مومين، «إنّه الوعاءُ الذي نضعُه للنّحلِ. الآن ليس من الضّروري حملُه إلى الحقلِ. والجدّةُ قالت دائمًا إنّكَ إذا أردتَ أن تهبكَ الأرضُ محصولاً جيّدًا عليك أن تقدّمَ لها هديةً في الخريف.»

ظهرَت قدما نِني ثانية، وفوقَهما ظهرَت ساقان طويلتان وهزيلتان. وعند حدودِ الرّكبتَين كانَ في وسعِ المرء أن يرى معالِم باهتةً من حاشيةِ ثوبٍ بُنيّ اللون.

-«أنا أرى ساقَيها!» صاح مومين ترول.

-«ثَمانينا،» علّقَت ماي الصّغيرة وهي تَرنو إلى الأسفل من على شجرتِها. «هَذا ليس سيئًا. الغروك تعرفُ لماذا على النّاسِ أن يلبسوا لونًا كلَون السَّعوطِ.»

أومَأت ماما مومين لنفسِها إيماءةً إيجابيةً، وأرسلَت تحيةً لجدّتِها وأدويتِها.

لحقَت بهم نِني طوال النّهار. وأصبحوا يألفُون سماعَ رنينِ الجرس، وما عادوا يعتبرون نِني شيئًا غريبًا جدًّا.

بحلولِ المساء نَسوا أمرَها تقريبًا. لكن عندما أوى الجميعُ إلى أَسِرّتِهم أحضَرَت ماما مومين شالاً ورديًا من شالاتِها وحوّلته إلى ثوبٍ صغير. بعدَما أصبح جاهِزًا حملَته إلى العليةِ الشّرقية في الطّابق العلوي وبحرصٍ وضعَته على كرسي. ثمّ صنَعت عُقدةَ شعرٍ عريضةً من القماش المُتبقّي.

كانت ماما مومين مستمتعةً استمتاعًا هائلاً بما تفعلُه. شبّهَت ذلك بالعودةِ إلى خياطةِ ملابسِ الدُّمى. والطّريفُ في الأمر هو أنّ المرءَ لا يعرفُ إذا كانت الدُّمية ذاتَ شعرٍ أشقرَ أو أسودَ.

في الصّباح التّالي ارتدَت نِني الثّوب. أصبحَت مَرئيةً إلى حدود رقبتِها، وعندما نزلَت من أجلِ شاي الصّباح انحنَت لهم مُؤدّيةً تحيّةً رسميةً وزَمّرَت: «أشكركُم جميعًا جزيلَ الشُّكر.»

تملّك العائلةَ شعورٌ بالإحراج، ولم يَجِد أحدٌ أيّ شيءٍ يقولُه. هَذا إضافة إلى أنَّه كانَ من الصّعب أن يعرفوا أين ينظروا عندما يخاطِبون نِني. طبعًا حاولوا أن يرفعوا بصرَهم فوقَ الجرس قليلاً حيث يُفترَض أنّ تواجه عُيونُهم عينَي نِني، ثمّ وبسهولةٍ بالغة كانوا يكتشفون أنّهم يعودون إلى التّحديقِ في شيءٍ مَرئي في الأسفل بدلاً من ذلك، وهذا جعل الشّعورَ بعدمِ اللياقَةِ يسيطرُ عليهم.

تنحنحَ بابا مومين. «يُسعدنا أن نَرى،» بدأ يقول، «حسنًا، يُسعدنا أن نرى المزيدَ من نِني اليوم. كلّما زاد ما نراه اِزددنا سعادةً...»



أطلقَت ماي ضحكةً وخبطَت الطّاولة بملعقتها. «حسنٌ أنّكِ بدأتِ تتكلّمين،» قالت. «آملُ أن يكونَ لديكِ ما تقولينه. أتَعرفين أيّ ألعابٍ جيّدة؟»

-«لا،» زمّرت نِني. «لكنني سمعتُ عن الألعاب.»

ابتهجَ مومين ترول. وقرّرَ أن يُعلِّم نِني مُختلفَ الألعاب التي يعرف.

بعد القهوةِ نزل ثلاثتُهم نحوَ النّهر ليلعبوا. وسرعانَ ما تبيّنَ أنّ نِني حالةٌ مَيؤوسٌ منها تمامًا. كانت تنحني وتشيرُ وبجدّيةٍ بالِغةٍ تجيبُ «تمامًا،» و «كم هَذا طريفٌ،» و «طبعًا،» ولكن بدا واضحًا أنّها لا تلعبُ إلّا من بابِ المُجاملة وأنّها لا تستمتعُ بشيء.

-«اركُضي، اركُضي، ألا تَقدرين!» ما انفكّت ماي تهتفُ، أو ربّما تصيح: «ألا يُمكنكِ أن تَقفزي حتّى؟»

ركضَت ساقا نِني الهزيلتان وقفزَتا. ثمّ عادت الطّفلة ووقفَت ساكنةً مُتدلّيةَ الذّراعَين. ياقةُ الثّوبِ الفارِغة فوق الجرسِ بدَت عاجِزةً على نَحوٍ مُستهجَنٍ.

-«أتعتقدين أنّ أحدًا يحبُّ ذلك؟» زعقَت ماي. «أَلا حياةَ فيكِ؟ أتُريدين لكمةً على أنفكِ؟»

-«لا أُفضّلُ هَذا،» أجابت نِني بانكسارٍ.

-«هي عاجِزةٌ عن اللعبِ،» غمغَم مومين ترول.

-«بالأحرى هي عاجِزةٌ عن الغضبِ،» قالت ماي الصّغيرة. «هَذا هو الخَطأ فيها. اِسمعي يا أنتِ،» تابعَت ماي ودنَت من نِني وفي عينَيها نظرةُ تهديدٍ. «لن تَحصلي على وجهٍ أبدًا إلى أن تتعلّمي خوضَ المعارِك. صَدّقيني.»

-«نعَم، طبعًا،» أجابت نِني وهي تتراجعُ بحذرٍ.

لم يَطرأ أيُّ تحسُّنٍ بعد ذلك.

أخيراً، توقّفَ الصّغيران عن مُحاولاتِهما ليعلّما نِني اللعبَ. وتبيّنَ لهُما أنّ الحكايات المُضحكةَ لا تستَهويها أيضًا. لم تضحك قطّ في الوقتِ المناسِب للضّحِك. بَل لم تضحك مُطلقًا في الواقِع. ولِهذا أثرٌ سَلبي على الشّخص الذي يَروي الطُرفةَ. وفي النّهاية تُرِكت وحدَها مع نفسِها.

مرّت الأيامُ ونِني ما زالت بلا وجهٍ.

اعتادوا على رؤيةِ ثوبِها الوردي يمشي وراءَ ماما مومين طوالَ الوقت. وكلّما وقفَت ماما مومين يتوقّفُ الجرس الفِضيّ عن الرّنين، ثمّ عندما تُتابِع طريقَها يبدأ الجرسُ في الرّنين ثانيةً. وعلى مسافةٍ قصيرةٍ فوق الثّوب ظهرَ شريطٌ وردي عريضٌ يتأرجحُ في الهواء.

داومَت ماما مومين على مُعالجة نِني بدواءِ الجدّةِ، لكن لم يَطرأ عليها مزيدٌ من التّقدّم. لذلك أوقفَت ماما مومين العلاجَ بعد فترةٍ من الوقت، وقالت لنفسِها إنَّ العديدَ من النّاس قد تَدبّروا أمرَهم جيدًا بلا رأسٍ، إلى جانبِ أنّ نِني قد لا تكونُ صبيحةَ الوجهِ.

وبينما هي هَكذا، في وسعِهِم دائمًا أن يتخيّلوا كيفَ تبدو، وهذا غالِبًا ما يُضفي البهجةَ على العلاقات.

في أحد الأيامِ ذهبت العائلةُ عبرَ الغابة إلى الشّاطئ. كانوا يريدون رفعَ المركبِ من الماء استعدادًا للشتاء. تَبعَتهم نِني كالعادةِ مع رنينِ جرسِها. لكن بمُجرّدِ أن أصبحوا قبالةَ البحرِ تسمّرَت في أرضها، ثمّ انبطحَت على الرّمل وبدأت تَئِن.

-«ماذا طَرأ على نِني؟ أَهِي خائفة؟» تساءل بابا مومين.

-«ربّما هي لم تَر البحرَ من قَبل،» قالت ماما مومين التي توقّفَت وانحنَت



لتتبادلَ بضعَ كلماتٍ همسًا مع نِني. ثمّ اعتدلَت واقفةً وقالت: «نعَم، نِني تظنُّ أنّ البحر كبيرٌ جدًّا.»

-«مِن بين جميعِ الأطفالِ السُّخفاء،» بدأت ماي الصّغيرة، إلّا أنّ ماما مومين عاجَلَتها بنظرةٍ مُعَنِّفة وقالت: «لا تكوني طفلةً سخيفةً أنتِ نفسكِ. هيّا بِنا الآن نسحبُ المركبَ إلى اليابِسة.»

قطَعوا قاعِدة المَرسى إلى بيت الاستحمامِ حيث تُقيمُ تو- تيكي، وقَرعوا الباب.

-«أهلاً،» رحّبَت بهم تو- تيكي. «ما أخبارُ الطّفلةِ الخَفيّة؟»

-«بقيَ رأسُها فقَط،» أجابَ بابا مومين. «في الوقت الرّاهِن هي فزعةٌ قليلاً، لكن هَذا سَيَمرّ. أيُمكن أن تُساعدينا في سحبِ المركب؟»

-«بالتّأكيد،» أجابت تو - تيكي.

بينما رُفِع المركبُ إلى اليابسة وقُلِبَت عارِضته، كانت نِني قد تقدّمَت نحو الماءِ، ووقفَت بلا حراكٍ على الرّمل الرّطب. تركوها وشأنَها.

جلسَت ماما مومين على خشبةِ المرسى ونظرَت إلى الماء. «آه يا ربّي، يبدو بارِدًا جدًّا،» هتفَت. ثمّ تثاءبت مرّةً أو مرّتين وأضافت أن لا شيءَ فيه إثارةٌ قد حدث مُنذ أسابيع.

غمزَ بابا مومين مومين ترول، كشّرَ وجهَه بطريقةٍ مُخيفة وبدأ يتسلّلُ نحو ماما مومين من وراء ظهرِها.

طبعًا هو لم يَنوِ حقًّا أن يُلقيها في الماء كما درجَ أن يفعلَ كثيراً عندما كانت شابّةً. بل ربّما لم يَنو أيضًا أن يباغِتَها، إنّما أراد فقَط أن يُسلّيَ الأطفال قليلاً.

لكن قبلَ أن يصلَ إليها دَوَّت صرخةٌ ثاقِبة، وبلمح البصرِ انطلق شريطٌ ورديٌّ كأنّه الوميضُ فوق خشبةِ المَرسى، وسرعانَ ما نَدَّت عن بابا مومين صيحةٌ وأوقعَ قُبّعتَه في الماء. صاحَ لأنّ نِني كانت قد غرزَت أسنانَها الصّغيرةَ الخَفيّة في ذيلِه، وقد





كانت في الحقيقةِ أسنانًا حادّةً.

-«أحسنتِ!» صاحت ماي. «ما كنتُ أنا نفسي لأفعلَ أحسنَ من هَذا!»

وهناك على خشبةِ المَرسى وقفَت نِني بأنفِها الصّغير الأفطَسِ ووجهِها الغاضِب المُتوَّجِ بشعرٍ أحمَر مُتشابِك. وقفَت تُزمجِرُ على بابا مومين مثل قطّةٍ.

-«إيّاكَ أن تَجرؤ على دفعِها في هَذا البحرِ الكبير المُروِّع!» صاحت.

-«أراها، أراها!» صاح مومين ترول. «إنّها حُلوة!»

-«بلا حُلوة بلا هُراء،» دمدَم بابا مومين وهو يتحرّى ذيلَه المَعضوض. «إنّها أسخفُ وأسوأُ وأقلُّ تهذيبًا من أيِّ طفلٍ وقعَت عيني عليه، بِرأسٍ أو بلا رأسٍ.»

ربضَ على خشبةِ المَرسى وحاول اِصطيادَ قُبّعتِه بعصا. ثمّ بطريقةٍ غامِضةٍ تشقلبَ وطاحَ في الماء رأسًا على عَقبٍ.

عاد ووقفَ حالاً وقدماه في القاعِ الضّحل، أنفُه فوق الماءِ، وأُذناه يغمرهُما الوحلُ.

-«ياه! يا ربّي!» تعالَى صياح نِني. «أوه، يا للروعةِ! أوه كَم هَذا مُضحكٌ!»

اهتزّت خشبةُ المَرسى من ضحكِها.

-«أعتقدُ أنّها لم تضحك قطّ مِن قبل،» قالت تو- تيكي بنبرةٍ متعجّبة. «يبدو أنّكم قد غَيرتمُوها؛ إنّها على ما أرى أسوأ من ماي الصّغيرة. لكن المُهمَّ طبعًا هو أنّنا نستطيعُ الآن أن نراها.»

-«الفضلُ كلُّه لِجدّتي،» قالت ماما مومين.





سِرُّ جماعةِ الهاتيفتنَر



في قديم الزّمانِ، منذُ عهدٍ ليس بقريبٍ نوعًا ما، حدثَ أن غادرَ بابا مومين البيتَ بلا أدنى تفسيرٍ ومن غيْرِ أن يفهمَ هو نفسُه لماذا كانَ لا بُدَّ من أن يرحلَ.

لاحِقًا قالت ماما مومين إنَّه بَدا غريبَ الأطوارِ مُنذ مُدّةٍ طويلةٍ؛ لكنه على الأرجحِ ليس على تلكَ الدّرجةِ من الغَرابَة التي تفوقُ المُعتاد. وهذا لا يَعدو كَوْنه أحدَ تلك الأمورِ التي يُشكّل عنها المرءُ فكرةً ما تسبّبُ له الحيرةَ والحزنَ وينشدُ راحة الحصولِ على تفسيرٍ لها.

لا أحدَ عرفَ على وجهِ اليقين الوقتَ الذي رحلَ فيه بابا مومين.

قالَ سنفكين إنَّه كانَ قد نَوى التّجديفَ مع الهِيمْيُولِن لاصطيادِ السّمك، لكن وفقًا للهِيمْيُولِن، فإنّ بابا مومين اكتفَى بالجلوسِ في الشّرفةِ كعادتِه، وفجأةً أشار إلى أنّ الجوَّ حارٌّ ومُملٌّ وأنّ خشبةَ المَرسى تحتاج إلى التّصليحِ. لكن بابا مومين لم يُصلحها على أيِّ حال، لأنّها بقيت مُنحرفةً كالسّابق. هَذا إضافةً إلى أنّ القاربَ ما زال هناك.

عنَى هَذا أنّ بابا مومين انطلق سيراً على الأقدام، وبِما أنّه يستطيعُ اختيارَ اتجاهاتٍ مختلفةٍ في مَسيرته، لم تَكُن هناك فائدةٌ من البحثِ عنه.

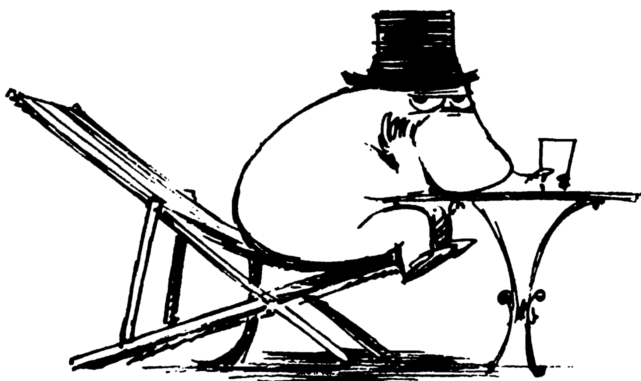
-«يعودُ في الوقت المناسِب،» قالت ماما مومين. «لطالَما أخبرني بهذا مُنذ البداية، وقد عاد دائمًا، لذا أفترضُ أنَّه سيعود هَذه المرّة أيضًا.»

لا أحدَ اِعتراه القلقُ، وذلك شيءٌ جيّدٌ. فَهُم سبقَ أن اتفَقوا على ألّا يقلقَ

أحدُهم على الآخَر؛ وهذه الطّريقة أراحت ضمائرَهم وأتاحت لهم الحصولَ على قَدْرٍ كافٍ من الحرّية.

وهكذا شغلَت ماما مومين نفسَها بحِياكةٍ جديدةٍ من غيْر أن تثيرَ البلبلةَ، وفي مكانٍ ما إلى الغربِ كانَ بابا مومين يجوبُ الدّروبَ وفي رأسِه تستقرّ بثباتٍ فكرةٌ لم تتضِح أبعادُها بَعد.

تلك الفكرةُ لها علاقةٌ بِلسانٍ بحري لمحَه مرّةً خلال إحدى النّزهاتِ العائلية. كانَ اللسانُ البحري يمتدُّ بلا مُعوّقات في البحر، والسّماء تغشاها الصُّفرة، وقُبَيل هبوطِ الليل انبثَقت في الجوّ لمسةُ ريحٍ. لم يُتح له قطّ الذّهابُ إلى هناك ليرى ماذا في الطّرفِ الآخَر. فالعائلةُ لطالما أرادت الرّجوعَ إلى البيت من أجل الشّاي. أرادوا دائمًا العودةَ في الوقت غيْر المناسِب. لكن يومَذاك، وقفَ بابا مومين على الشّاطئ برهةً، يستشرِفُ بعينَيه المدَى فوق الماء. وفي تلكَ اللحظةِ بالذّات ظهرَ على مقربَةٍ من الشّاطئ صفٌّ من مراكِب بيضاءَ صغيرةٍ ينطلقُ بلا تقاعُسٍ إلى عَرض البحر.



-«إنّهم جماعةُ الهاتيفتنَر،» قالَ الهِيمْيُولِن، مُضمّنًا هَذه الكلمات كلَّ شيء؛ القليلَ من الاستخفافِ، القليلَ من التّحفّظِ، وباستنكارٍ واضحٍ. فأولئك كانوا الغُرباءَ، الخَطرين نسبيًا، والمُختلفين.

حِينذاك طغَى التّوقُ القاهِر والكآبةُ على بابا مومين، والشّيءُ الوحيدُ الذي باتَ متأكِّدًا منه هو أنَّه ما عادَ يرغب في تناولِ الشاي في الشّرفة. لا في ذلك المساءِ ولا في أيِّ مساءٍ آخَر.

حدث هَذا منذُ وقتٍ بعيدٍ، لكن الصّورةَ لم تفارقْه قطّ. وهكذا حزمَ أمرَه ورحل في عصرِ أحد الأيام.

كانَ اليوم حارًّا، وبابا مومين مضَى يمشي على غيْر هُدى.

لم يَجرؤ على التّفكير في ذلك، أو يسمحَ لنفسِه بالشّعورِ بأيِّ شيءٍ؛ فقَط مضَى يمشي نحو مغربِ الشّمس وهو يُضيّقُ عينَيه تحت قُبّعته، ويُصفّر بينَه وبيْن نفسِه من غيْر أن يستقرَّ على لحنٍ مُعيّن. طالعته تلالٌ ومُنحدرات، وأشجارٌ أقبلَت نحوه وتجاوَزته وقد بدأت ظِلالُها تتطاولُ.

لحظةَ غطَست الشّمس في البحر وصلَ بابا مومين إلى الشّاطئ الحصوي المَديد حيث لا شيءَ أبدًا توقّف عِنده، ولا فكّر أحدٌ يومًا أن يرتادَه للنّزهةِ.

ما حدثَ أن رأى بابا مومين ذلك الشّاطئَ من قَبل؛ كانَ رماديًا وكئيبًا ولا يُوحي إلّا بأنّ الأرضَ تنتهي عِنده، وأنّ البحرَ يبدأ مِنه. خاضَ بابا مومين في الماءِ ومدّ نظرَه بعيدًا.

وبطبيعةِ الحال – ماذا يُمكن أن يحدثَ غيْر ذلك في الواقِع – ظهرَ في تلك اللحظةِ مركبٌ أبيضُ صغيرٌ ينزلِق مع الرّيح على طولِ الشّاطئ.

«ها هُم،» همهَم بابا مومين بهدوءٍ وبادرَ إلى التّلويح بِيَده.

كانَ في المركب ثلاثةُ هاتيفتنَر فقَط، وكانوا ببياضِ المركب والشّراع تمامًا. أحدُهم يجلس أمام دفّةِ القيادةِ ورَفيقاه يجلسان وهُما يوليانِ السّاريةَ ظَهرَيهما، وثلاثتُهم يحدّقون في البحر ويبدون كما لو أنّهم كانوا يتشاجَرون. لكن بابا مومين سمع مرّةً أن الهاتيفتنَر لا يتشاجرون أبدًا؛ فَهُم صامِتون ولا يَعنيهم سوى الإبحارِ والإبحارِ إلى أبعدِ حدٍّ مُمكن، على طولِ المسافة إلى الأُفق، أو إلى نهاية العالَم، وهذا على الأرجح يَعني الشّيءَ عَينه. أو هَكذا يقول النّاس. ويُقال أيضًا إنَّ الهاتيفتنَر لا يهتمّون إلّا بأنفسِهم، وأكثرَ من ذلك، يصبحُون مَشحونين بالكهرباء في العواصف الرّعدية. ويُقال كذلك إنّ صُحبتهم مُهلِكة لكلّ أولئك الذين يعيشون في غُرف الجلوس ويرتادونَ الشّرفات، أولئك الذين يقومون دائِمًا بأمورٍ مُعيّنة في أوقاتٍ مُعيّنة.

هَذا بمُجملِه أثار اهتمامَ بابا مومين كثيراً جدًّا بِقَدْر ما تسعفه الذّاكرةُ، لكن بما أنّ المجيء على ذِكرِ الهاتيفتنَر لا يُعتبَر مقبولاً، إلّا ربّما بطريقةٍ غيْر مباشرةٍ، ما زالَ يجهلُ مَدى صحّةِ تلك الأقاويلِ.

شعرَ وهو واقفٌ برعشةٍ تسري من رأسِه إلى ذيله، وبحماسةٍ عظيمةٍ رأى المركبَ يَدنو. لم يردّ عليه أيّ واحدٍ من الهاتيفتنَر بإشارةٍ ما؛ والمرءُ بطبيعة الحالِ لا يستطيعُ أن يتخيّلَ أنّهم قد يُؤدون مثل هَذه الحركاتِ اليومية الشّائعة. لكن بَدا واضِحًا أنّهم قادِمون من أجله. وبحفيفٍ طفيفٍ انجرف المركبُ نحو الحَصباء واستقرّ هناك ساكنًا.

نظر الهاتيفتنَر الثلاثةُ بعيونِهم الباهِتة المُستديرة إلى بابا مومين، فرفعَ لهم قُبّعته وبدأ يفصحُ عن مَكنون نفسِه. بينما انبَرى يتكلّم، أخذت أكفُّهم تلوّحُ بالتّزامُن مع كلماتِه. وهذا حيّر بابا مومين. رأى نفسَه فجأةً عالقًا بيأسٍ في جُملةٍ طويلةٍ عن الأُفق والشّرفاتِ والحرّية وتناولِ الشّاي عندما لا يريدُ المرءُ أن يشربَه. في النّهاية صمتَ مُحرجًا، ومع توقّفِه عن الكلام توقّفَت أكفُّ الهاتيفتنَر الثلاثة عن التّلويح.

-«لماذا لا يقولون شيئًا؟» فكّر بابا مومين بعصبيةٍ. «ألا يُمكنهم سماعي، أَم هُم يعتقدون أنّني سخيفٌ؟»

مدَّ يدَه إليهم وهو يصدرُ جلبةً وديّةً مُستفهِمة، فلم يُحرّك الهاتيفتنَر ساكِنًا. عيونُهم فقَط غيرّت ألوانَها ببطءٍ وأصبحت بصُفرةِ سماءِ المساء. أرجعَ بابا مومين يدَه وأدّى أمامَهم انِحناءَةَ تحيّةٍ خَرقاء.

نهضَ الهاتيفتنَر الثلاثةُ فورًا وانحنوا له هُم أيضًا باحترامٍ بالِغ، نهضوا معًا، وفي الوقتِ نفسِه.

-«تَشرّفنا،» قالَ بابا مومين.

لم يَقُم بأيّ جُهد آخَر ليوضحَ الأمورَ، بَل اِكتفَى بالصعودِ إلى المركبِ ودفعِه. كانت السّماءُ تتأجّجُ بلونٍ أصفَر، تمامًا كما كانت في تلك المرّةِ السّابقةِ. بدأ المركبُ يُجانِبُ اليابسةَ ويُبحِر بِرَويةٍ.

لم يشعُر بابا مومين من قَبل قطّ بذلك السّرورِ والارتياحِ الذي شعرَ به. رأى أنَّه من الرّائِع على سبيلِ التّغيير ألاّ يضطرّ إلى قولِ شيءٍ أو تبريرِ شيءٍ لنفسِه أو للآخَرين. إذ بإمكانِه بكلّ بساطةٍ أن يجلسَ ويتأمّلَ الأُفق وينصتَ إلى صَخبِ الماء.

عندما اختفى السّاحلُ لاحَ البدرُ فوق البحر مُستديرًا وأصفَر. لم يحدُث قطّ أن رأى بابا مومين مثلَ ذلك القمرِ الكبيرِ والوحيدِ. ولم يحدُث قطّ أن دارَ في خلَدِه أنّ البحرَ يمكن أن يكونَ مُطلقًا وهائِلاً كما رآهُ آنذاك.

في الوقت نفسِه طغَى عليه شعورٌ بأنّ الأشياءَ الوحيدةَ الواقِعيةَ والمُقنعةَ في الوجود هي القمرُ والبحرُ والمركبُ مع الهاتيفتنَر الثّلاثةِ الصّامتين.

والأفُق، الأفُق طبعًا، في آخِر المدى حيثُ تنتظِره مغامراتٌ رائعةٌ وأسرارٌ غامِضةٌ، بما أنّه قد أصبحَ أخيرًا حرًّ.

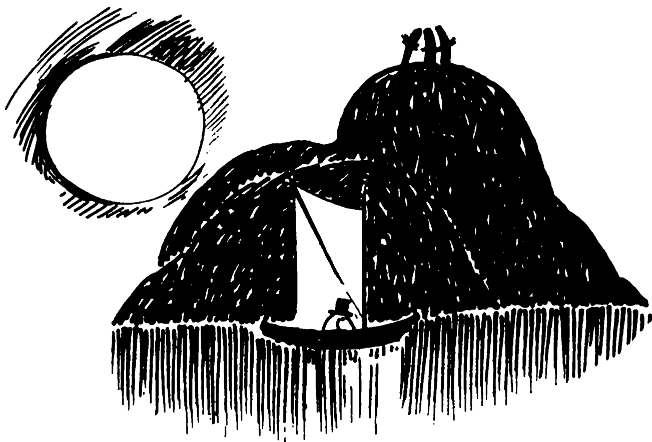
قرّرَ أن يصمتَ ويتصرّفَ بغموض مثل الهاتيفتنر. فالنّاسُ يحترمون المرءَ إذا لم يتكلّم. يعتقدون أنَّه في هَذه الحالة يعرفُ أمورًا عظيمةً كثيرةً، وأنه قد عاشَ حياةً في مُنتهى الإثارةِ.

نظر بابا مومين إلى الهاتيفتنرَ الجالِس عند الدّفّة. شعر أنَّه يرغبُ في قَول شيءٍ حميم له لِيُظهر تفهُّمه. ثمّ أعرضَ عن ذلك. هو على أيّ حالٍ لم يَعثر على كلماتٍ لِيقولُها؛ حسنًا لم يَعثر على كلماتٍ لها وقعٌ مُناسِبٌ.

ما كانَ ذاكَ الذي ذكَرته بنتُ الميمبل عن الهاتيفتنر؟ في الرّبيع الماضي خلالَ العشاءِ في أحدِ الأيام. أنّهم يعيشونُ حياةً فاسِدةً؟ وماما مومين أجابَت: «تلك مُجرّد أقاويل»؛ لكن ماي غدَت مُهتمّةً جدًّا وأرادت أن تعرفَ ما عنَى ذلك. وبِقدر ما يستطيعُ بابا مومين أن يتذكّرَ، لا أحدَ استطاعَ حقًّا أن يصفَ ما يفعلُه النّاسُ عندما يعيشون حياةً فاسِدةً. ومن المُحتمل أنّ ذلك يَعني أنّهم يتصرّفون بعنفٍ وطيشٍ عمومًا.

وقد قالت ماما مومين إنّها لا تعتقدُ أنّ الحياةَ الفاسِدة فيها مرحٌ، لكن بابا مومين لم يكن واثِقًا من ذلك تمامًا. «لها علاقةٌ بالكهرباء،» قالت وقتَها بنتُ الميمبل بتأكيدٍ حاسِم. «ويملكونَ القُدرةَ على قراءةِ أفكارِ النّاسِ، وهذا لا يَجوز.» ثمّ انتقلَ الحديثُ إلى مَوضوعٍ آخر.

ألقى بابا مومين نظرةً سريعةً على الهاتيفتنَر الثلاثة. لاحظ أنّهم عادوا إلى التّلويح بأكُفّهم. «أوه يا للهولِ،» فكّر. «أيُعقَل أنّهم جالسون هناك يتتبّعون أفكاري بأكُفّهم؟ والآن شعروا بالإساءةِ، أوه، طبعًا...» حاول جاهِدًا أن يُخفّف من وَطء أفكارِه، أن يُصفّيها ويُنحّيها عن رأسِه، ينسى ما سبقَ أن سمِعَه عن الهاتيفتنَر مع أنّ هَذا ليس سهلاً. ففي تلك اللحظةِ لا شيءَ آخَر يُثير اهتمامَه. ما تمنّى سوى أن



يُجري حديثًا معهم... فهذه أسهلُ طريقةٍ لمنعِه من الاسترسالِ في التّفكير.

لم يَر أنّ هناك فائدةً من التّخلّي عن الأفكارِ الخَطرة والجسيمةِ والتّركيزِ على التّافهِ الوَدود منها. فآنذاك قد يظنُّ الهاتيفتنَر أنّهم قد أخطأوا باصطحابِه، وأنّه بابا مومين عادي من النّوع الذي يجلسُ في الشّرفات...

ضيّقَ بابا مومين عينَيه مُمعِنًا النّظرَ في المدى حيثُ ظهرَ مُنحدَرٌ صخري أسود وصغيرٌ تحتَ ضوءِ القمر.

حاول التّفكيرَ بأشياء تغلبُ عليها البساطةُ: هناك جزيرةٌ في البحر، القمرُ يشعُّ فوقَها مباشرةً، القمر يسبحُ في ماءٍ فاحِم السّواد، أصفَر، أزرَق داكِن. أخيراً هدأ، وتوقّفَ الهاتيفتنَر عن التلويح بأكُفّهم.

كانت الجزيرة على الرّغم من صغرِها وعرة وشديدةَ الانحدارِ.

انبثَقت من الماء مُظلمةً ومُتعرّجة، ولا تبعدُ كثيراً في الشّبهِ عن رأسِ أكبَر الثّعابين.

-«أَنَرسو هنا؟» سألَهم بابا مومين.

لم يردّ الهاتيفتنَر. نزلوا إلى اليابِسة وهم يَحملون حبلَ المركب، وعَقدوه حول فُلُع صخرةٍ. ومن غيْر أن يُولوه نظرةً واحِدة بدأوا يتسلّقون الجزيرةَ. رآهُم يَتشمّمون طريقَهم عكس اتجاهِ الرّيح، ثمّ رآهم ينحَنون ويلوّحون بأكُفّهم بتآزُرٍ غامِض تركَه مَنبوذًا.

-«لا تهتمّوا بي،» صاح بابا مومين بصوتٍ مُتأذٍ وتسلّقَ هو أيضًا إلى اليابِسة. «لكن إذا سألتُكم إذا كنّا سَنرسو، حتّى وأنا أرى أنّنا قد فعلنا، ما زالَ في وسعِكم أن تعطوني جوابًا متحضّرًا، كلمةً أو كلمتَين فقَط، لأشعرَ أنّني في صُحبتِكم.»

وما قالَ هَذا إلّا بَينه وبين أنفاسِه، وما قالَه إلّا لنفسِه بالتّحديد.

كانت مُنحدرات الجزيرةِ حادّةً ووعرةً. والجزيرةُ بدت أنّها تخبرُ الجميع بوضوحٍ جليّ أنّ عليهم البقاءَ بعيدًا عنها. لا أزهارَ فيها، لا أعشابَ، لا شيءَ. فقَط ظهرَ أنّها دفعَت نفسَها خارجَ الماءِ بغضبٍ.

فجأةً اكتشفَ بابا مومين أمرًا غريبًا وغيْر مُستساغٍ على الإطلاق. كانت الجزيرةُ تعجُّ بالعناكِب الحمراء. عناكِبُ صغيرةٌ جدًّا ولكن تفوقُ العدَّ والحصرَ، تحتشدُ على الجرفِ الأسوَد مثلَ سجادةٍ حمراءَ حَيّة.

ليس فيها عنكبوت واحدٌ ساكِن؛ جميعُها سعَت هنا وهناك بكلّ ما تملكُ من



طاقةٍ، حتى ظهرَت الجزيرةُ كما لَو أنّها تزحفُ تحت ضَوء القمر.

هَذا جعلَ بابا مومين يشعرُ بالوهَنِ. رفع ساقَيه، وبسرعةٍ أنقذَ ذيلَه وهزّه بِقُوّة، حدّق في الأنحاء بحثًا عن بقعةٍ واحِدة خاليةٍ من العناكِب الحمراءِ، ولم يَجد ولا فُسحةً صغيرةً.

-«لا أريدُ أن أدوسَ عليكِ،» غمغَم بابا مومين. «آه يا ربّي، لماذا لم أنتظِر في المركب... إنّها كثيرةٌ جدًّا. غيْر طبيعي أن يكونَ هناك هَذا العددُ الهائِل من النّوع نفسه... وجميعُها مُتماثِلة.»

بحث يائسًا عن رفاقهِ الهاتيفتنَر، ولمح ظِلّهم تحت القمر في أعلى الجُرْف. أحدُهم عثرَ على شيءٍ ما. ولم يستطِع بابا مومين أن يتبيّنَ ما هو.

لكنه على أيّ حالٍ لم يأبَه. عاد إلى المركب وهو يهزّ قدمَيه مِثل قطّةٍ. بعضُ العناكِب زحفَت عليه ورأى أنّ ذلك مُنفرٌّ للغايَة.

سرعانَ ما وجدَت العناكِب حبلَ المركب وبدأت تزحفُ عليه مُشكّلةً مَوكبًا دقيقًا أحمَرَ اللون. ومن هناك زحفَت على طولِ شفيرِ ظهرِ المركب.

وبِقَدْر ما استطاعَ تراجعَ بابا مومين إلى ركنٍ في مؤخّرةِ المركب ولبثَ ينتظرُ.

-«هَذا شيءٌ يراوِدُ المرءَ في الحلمِ،» فكّر. «ثمّ يصحو وهو ينتفضُ ليقصَّه على ماما مومين. يقول لها لا يُمكنكِ أن تتخيّلي فظاعَة المشهدِ يا عزيزتي، عناكِب لا تُحصى، أنتِ أبدًا...

-«فتصحو هي بِدورها وتجيبُ: مسكينٌ بابا مومين، ذاك مجرّد حلمٍ، لا عناكِبَ هنا...»

شاهد الهاتيفتنَر الثلاثةَ يعودون أدراجَهم ببطءٍ.

وعلى الفورِ تدافَعت العناكِب موليةً الفرارَ بخوفٍ، اِستدارت وهرعَت إلى الشّاطئ على طولِ حبلِ المركب.

صعد الهاتيفتنَر إلى المركب ودَفعوه. فانزلَق خارِجًا من ظلِّ الجزيرة الأسودِ نحو نورِ القمر.

–«الحمدُ لله على عودتِكم،» صاح بابا مومين بارتياحٍ عظيم. «في الحقيقة ما أحببتُ قطّ العناكِب التي هي أصغرُ من أن يتحدّثَ معها المرء. أَعَثرتم على شيءٍ مُهمّ؟»

وجّهَ إليه الهاتيفتنَر الثلاثةُ نظرةً طويلةً صفراءَ كصُفرةِ القمر وبَقوا صامِتين.

–«قلتُ أَعَثرتم على أيّ شيءٍ،» كرّر بابا مومين وقد احمرَّ وجهُه قليلاً. «إذا كانَ سرًّا، يمكنكم طبعًا الاحتِفاظُ به لأنفُسكم. لكن على الأقلّ أخبِروني أنَّه قد كانَ هناك شيءٌ.»

حافَظَ الهاتيفتَنَر الثلاثةُ على سكونِهم وصمتِهم، اِكتفوا فقَط بالنّظرِ إليه. عند هَذا الحدّ شعر بابا مومين أنّ رأسَه يصبحُ حارًّا فصاح: «أَتُحبّون العناكِب؟ أَتُحبّونها أم لا؟ أريد أن أعرفَ الآن حالاً!»

في خِضَمّ الصّمت المَديد المُخيّم تقدّمَ واحدٌ من الهاتيفتنَر خطوةً وبسطَ كفّيه. وربّما أجابَ بشيءٍ ما، أو ربّما ما كانَ ذلك سوى همسةٍ من الرّيح.

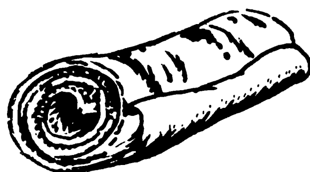
–«أنا آسِف،» قالَ بابا مومين والحيرةُ تعصِف به. «حسناً فهمتُ.» خمّنَ أنّ الهاتيفتنَر قد بيّنَ له أنّه ليس لديهم أيّ موقفٍ خاصّ من العناكِب. أو ربّما تأسّفَ على شيءٍ ليس في يده حيلةٌ له. ولعلّ الحقيقةَ المُحزنة هي أنّ بابا مومين والهاتيفتنَر لن يكونوا أبدًا قادرين على تبادُل حوارٍ ما في ما بينهم. وربّما هي خيبةُ أملِهم في بابا مومين واعتبارُ تصرّفِه طفوليًا. تنهّدَ وعايَنهم بنظرةٍ مكسورةِ الخاطِر. ثمّ وقعَ بصرُه

على ما عَثروا عليه. كانت لِفافةً صغيرةً من لِحاء شجرِ البتولا، من النّوعِ الذي يحبُّ البحرُ أن يطويَه ويرميَه على اليابِسة. لا شيءَ غيْر ذلك. ويُمكن أن يفردَها المرءُ كما تُفرَدُ الوثيقةُ، وهي بيضاءُ وبنعومةِ الحرير، وحالما تتحرّرُ من قَبضة المرء تَنطوي ثانيةً مثل قَبضةٍ صغيرةٍ مُحْكَمة حول سرٍّ ما. وقد اعتادَت ماما مومين أن تضعَ واحدةً منها حولَ مِقبَض إبريق الشّاي.

من المُحتمل أن تحتوي هَذه اللفافةُ رسالةً مُهمّة أو ما يُشبه ذلك. لكن فضولَ بابا مومين ما عاد طاغيًا. شعرَ بلمسةِ بردٍ تسري فيه، فتقوقعَ على أرضية المركب ليأخُذَ غفوةً. أمّا جماعةُ الهاتيفتنَر فلا يشعرون بالبرد. هُم لا يَشعرون إلّا بالكهرباءِ. وهُم لا ينامون أبدًا.

استيقظَ بابا مومين فجراً. استيقظَ بظَهْرٍ مُتيبّسٍ وما زالَ يشعرُ بالبرد. من تحتَ طرفِ قُبّعته رأى قِسمًا من شفيرِ ظَهر المركَب ومثلثًا رماديًا من البحر يَعلو ويهبطُ ويَعلو ويهبِط ثانيةً. أحسّ بقليلٍ من الغَثيان، وأنّه لا يُشبه في شيءٍ ذلك المومين المُحبَّ للمُغامرة.

كانَ أحدُ الهاتيفتنَر يجلس على مقعدِ التّجديف الأقربِ، فلبِث يراقِبه خُلْسةً. بدت عيْناه رماديتان في تلك اللحظةِ. الكفّان المفصّلان بدقّةٍ مُتناهيةٍ كانا يَنثنيان بتمَهُّل كأنهما جناحا عثّةٍ رابِضة. ربّما كانَ ذاك الهاتيفتنَر يتكلّم مع رفيقيه، أو ربّما هو يفكّر فقَط. رأسُه مُستدير وبلا رقبة. يُشبه أكثر ما يُشبه، قالَ بابا مومين بينه



وبين نفسِه، جَوربًا طويلاً أبيَض، جوربًا باليًا قليلاً عند نهايتِه المفتوحةِ كما لو أنَّه مصنوعٌ من رغوةٍ بيضاءَ.

ما زال شعورُه بالغَثيان يُلازمه. تذكّرَ تصرُّفَه في الليلةِ الماضية. والعناكِب. كانت تلك أوّل مرّةٍ يرى فيها عناكِب يُصيبها الذّعرُ.

-«ياه، ياه،» غمغَم بابا مومين. وإذ هَمَّ بالجلوس وقعَت عيناه على لِفافة لِحاء البتولا فتسمّرَ في أرضه ونصبَ أُذُنيه تحت قُبّعته. كانت اللفافة مستقرّةً في الدّلو على الأرضية، تتدحرجُ ببطءٍ مع حركةِ المركب.

نسيَ بابا مومين دُوار البحر وتركَ يدَه تتسلّلُ بحذرٍ إلى الأمام. ألقى على رفاقهِ الهاتيفتنَر نظرةً سريعةً ورأى أنّ عيونَهم كالمُعتاد مُسمّرةٌ على الأفُق. وسرعانَ ما استولى على اللفافةِ، أطبقَ يدَه حولها وسحَبها نحوه. في تلك اللحظةِ سرَت فيه صدمةٌ كهربائيةٌ طفيفةٌ، ليسَت أقوى من بطاريةِ مصباحٍ كاشِف عندما يتحسّسُها المرءُ بلسانه. لكنه لم يَكُن مُستعِدًّا لها.

قبعَ بلا حراكٍ فترةً يُهدئ من رَوْع نفسه، ثمّ بدأ يفتح الوثيقةَ السّرّيةَ برَويةٍ. وما لبثَ أن تبيّنَ له أنّها كانت مُجرّد لِفافة لِحاء بتولا عاديةٍ. لا خريطةَ كنزٍ، لا رسالةً مُشفّرة. لا شيء.

لعلّها ليست إلّا شيئًا يُشبه بطاقةَ زيارةٍ، يتركها الهاتيفتنَر من بابِ الكِياسةِ في أيّ جزيرةٍ مهجورةٍ يقصدونَها، ليعثرَ عليها غيْرهم من الهاتيفتنَر؟ ولعلّ تلك الصّدمةَ الكهربائيةَ الطّفيفةَ تمنحُهم الشّعورَ الودّي والأنيسَ الذي يشعرُ به المرءُ من تسلّمِه رسالةً ظريفةً؟ أو لعلّ لديهم كتابةً خفيةً يجهلُها جماعةُ التّرول العاديين. بخيبةِ أملٍ تركَ لِحاء البتولا ينطوي ثانيةً على نفسِه ورفَع نظره نحو الهاتيفتنَر.

اكتشفَ بابا مومين أنّهم كانوا يُراقِبونه بهدوءٍ، فتضرّجَ وجهُه بالحُمرة.



-«كلُّنا في المركب نفسِه على أيّ حالٍ،» قالَ. ومن غيْر أن يتوقّعَ منهم ردًّا فردَ كفّه كما رآهم يفعلون، بإشارةٍ مَغلوبةٍ على أمرها وآسِفة، ثمّ تنهّد.

على هَذه الحركةِ أجابت الرّيحُ بعويلٍ واهٍ تردّدَ صداه في حِبال السّاريةِ المَشدودة. كانَ البحرُ يطوي أمواجًا رماديةً على طول المسيرةِ إلى آخِر العالَم، وبابا مومين فكّر بشيءٍ من الأسفِ: «إذا كانت هَذه هي الحياةُ الفاسِدةُ أفضّلُ عليها أن أَلتَهِم قُبّعتي.»

هناك العديدُ من الجُزرِ المُختلفة، لكن تلك الصّغيرةَ بما يَكفي، والبعيدةَ بما يَكفي هي بلا استثناءٍ حزينةٌ وموحِشة. الرّيح تعصفُ بها من جميعِ الاتجاهاتِ، القمرُ الأصفرُ يستَتر ويبزغُ من جديد، البحرُ في الليل يتحوّلُ إلى سوادٍ فاحِم، وتلك الجزرُ تبقى دائمًا وأبدًا كما هي، والهاتيفتنَر هُم وحدهم مَن يزورها من وقتٍ لآخَر. هي في الحقيقة ليسَت جُزرًا بالمعنى الدّقيقِ للكلمةِ. بل نتوءاتٌ وعِرة وصخورٌ وشِعابٌ مرجانيةٌ، شرائِط مَنسية من اليابسةِ ربّما تغوصُ تحت الماء قبل الفجرِ وترتفعُ إلى السّطح ثانيةً في الليل لِتلقيَ نظرةً حولها. المرءُ لا يُمكن أن يعرفَ.

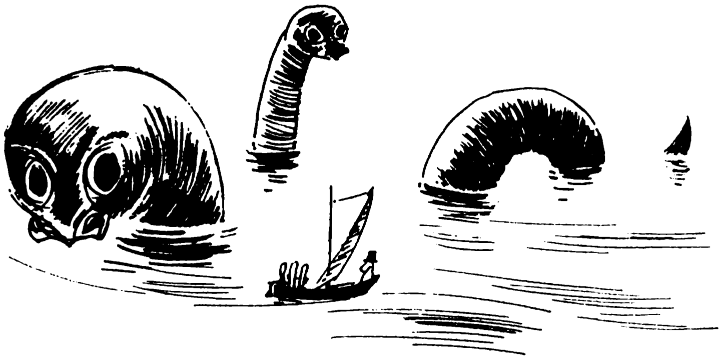
الهاتيفتنَر قَصدوها كلّها. أحيانًا وجدوا بانتظارِهم لِفافة لِحاء بتولا. وأحيانًا لم يعثروا على شيءٍ؛ فقد لا تكونُ الجزيرةُ إلّا ظهْرَ فقمةٍ أملسَ تُحيطه الأمواجُ، أو

صخرةً جرداءَ ذات ضِفاف من العشبِ البحري الأحمر. لكن عندَ قمّة أيّ جزيرةٍ فعليةٍ يترك الهاتيفتنَر وراءَهم لِفافةً بيضاءَ صغيرةً.

لديهِم وجهةُ نظرٍ ما، فكّر بابا مومين. هي بالنّسبةِ إليهم أهمُّ من جميعِ الأمورِ الأُخرى. وسأرافِقهم أينما ذهبوا حتّى أعرفَ ما هي.

ما صادَفوا المزيدَ من العناكِب الحمراء، مع ذلك بقيَ بابا مومين في المركبِ كلّما رَسوا في مكانٍ جديد. هَذه الجُزرُ ذكّرتَه بجُزرٍ أخرى بعيدةٍ خَلَّفها وراءَه، جُزرِ النّزهات، خلجانِ الاستحمامِ الخضراء المُعْشَوشِبة، الخَيمة، وحاويةِ الزّبدة تبردُ في الظّلّ قرب المركب، أكوابِ العصير على الرّمل، وملابسِ السّباحة تُجفّف على صخرةٍ كوَتها الشّمسُ... ليس أنَّه يفتقدُ حياةَ الشّرفةِ الآمِنةَ ولا لدقيقةٍ. تلك كانت مُجرّد أفكارٍ رفرَفت وهي تعبرُ رأسَه وسبّبَت له بعضَ الحزن. أفكارٌ عن أشياءٍ صغيرةٍ وبسيطةٍ.

في واقعِ الأمر، بدأ بابا مومين يفكّرُ بطريقةٍ جديدةٍ كلّ الجِدّةِ. فهو غالبًا ما



كانَ يَستمرئُ تجاهُلَ التّفكيرِ بما صادَفَه في حياتِه العامِرة والمُتنوّعةِ، وكذلك نادرًا ما حلمَ بما يمكنُ أن يخبئَه له المستقبلُ.

انسابَت أفكارُه مِثلما انسابَ المركبُ، وخلَت من الذّكريات أو الأحلام. كانت مثلَ أمواجٍ رماديةٍ شاردةٍ لم ترغَب في الاستقرارِ على شيءٍ ولا في بلوغِ الأُفُق حتّى.

كفَّ بابا مومين عن محاولةِ إجراءِ حوارٍ مع الهاتيفتنَر. جلس يحملقُ في البحر، مِثلهم تمامًا؛ غدَت عَيناه باهِتتين كعيونِهم، واصطبَغتا بلونِ السّماء. وعندما سبَحَت حولَهم في الأجواءِ جُزر جديدةٌ لم يُحرّك ساكنًا، فقَط قد يخبطُ ذيلَه مرّةً أو مرّتين بقاعِ المركب.

مرّةً، وهم يَنسابون على ظهرِ موجةٍ مُنتفخةٍ ووئيدةٍ طَرأت على بالِه فكرةٌ عابرةٌ: «لعلّي بدأتُ أشبه الهاتيفتنَر.»

كانَ يومًا قائظًا، وقُبَيل المساء تصاعَدَ سديمٌ متموّجٌ من البحر. سديمٌ كثيفٌ استثنائي الحُمرة. رأى بابا مومين أنَّه نذيرُ خطرٍ وأنّه شبه حَيّ.

كانت أفاعي البحرِ تفحُّ وتتخبّطُ في الماء مُوليةً الأدبار؛ أمكنَه أن يلقيَ عليها نظرةً أحيانًا: رؤوسٌ سوداءُ مُستديرةٌ وعيونٌ تحدّقُ فزعةً بالهاتيفتنَر، ثمّ لا تلبثُ أن تدفعَ زعانِف ذيولها في فرارٍ سريعٍ مُستَترةً بالسّديم.

-«إنّها خائفةٌ، كتلك العناكِب،» فكّر بابا مومين. «الجميعُ خائِفون من الهاتيفتنَر...»

تعالَى من بعيدٍ قصفُ رعدٍ يُدوّي مُتخلِلاً السّكون، ثمّ عادَ كلّ شيءٍ ساكنًا وهادئًا.

لطالَما اعتبرَ بابا مومين العواصفَ الرّعديةَ مُثيرةً للاهتمام. أمّا في تلك اللحظةِ فلم يكوّن عنها رأيًا. شعر أنّه حرٌ تمامًا ومُتحرّرٌ من كلّ شيءٍ. لكن بدا أيضًا كما

لَو أنَّه كفَّ عن الاكتراثِ بأي شيءٍ.

في تلك اللحظةِ انبثقَ مركبٌ آخَر من بين السّديم، وعلى مَتنه حشدٌ كبيرٌ. قفز بابا مومين ووقَف. على الفورِ أصبحَ بابا مومين المَعهود ثانيةً، وقفَ يلوّحُ بقُبّعته ويصيح. كانَ المركب الغريب يتقدّمُ نحوَهم مُباشرةً. مركبٌ أبيضُ. شراعُه أبيضُ. والنّاسُ الذين على متنِه بِيض...

-«أوه، فهمتُ،» غمغَم بابا مومين وجلسَ. تابَع المركبان رحلتَهما من غيْر أن يتبادلَ رُكّابُهما أيَّ تحيّةٍ.

ثمّ انسابَ مركبٌ تلوَ آخَر من بين السّديم، والمراكبُ كلّها يمّمَت الوجهةَ نفسَها، وكلّها يقودها الهاتيفتنَر. أحيانًا سبعةٌ منهم، أحيانًا خمسةٌ أو أحَد عشَر وفي بعضِ الأحيان لا يقودُها إلّا واحِد، وجميعها تضمُّ أعدادًا فردية فقط من الهاتيفتنَر.

انقشعَ السّديم وانطوى مُتحولاً إلى غسقٍ مسائي طفيفِ الحُمرة. بدا البحرُ مُكتظًّا بالمراكِب التي أبحرَت نحو نتوءٍ مُنخفض بلا أشجارٍ ولا مُرتفعاتٍ شاهِقة.

هدرَ الرّعدُ ثانيةً. كانَ مُتواريًا في مكانٍ ما في الغيمةِ الهائِلة السّوداء التي أخذَت ترتفعُ أعلى فأعلى فوقَ الأُفق.

مركبٌ إثر مركبٍ حطّ رحالَه وأنزلَ شراعَه. كانَ الشّاطئُ المهجورُ يغصُّ بالهاتيفتنَر الذين وصلوا باكرًا ووقفوا يتبادلون الانحناءَ في ما بَينهم.

بِقَدرِ ما استطاعَ بابا مومين أن يَرى، لم تُبصر عيناه إلّا كائناتٍ بيضاءَ رزينةً راحَت تتجوّلُ في الأنحاء وتتبادلُ الانحناءَ إلى اليمينِ واليسار، تُواكِبها أصواتُ حفيفٍ خفيفٍ بينما هي دائبةُ التلويحِ بأكُفّها. كانَ عشبُ الشّاطئ يهمسُ من حولهم.

وقفَ بابا مومين بعيدًا عنهم. حاول يائِسًا تمييزَ أصحابِه الهاتيفتنَر الثلاثة.

اِعتقَدَ أنّ ذلك مهمّ. فهُم فقَط مَن يعرف... حسنًا، نوعًا ما، نوعًا ما بالفعلِ...
ولكن...

أدرك أنّهم اختفوا بين الحشودِ، لم يستطِع استشفافَ أيّ اختلافٍ في مئاتِ المئاتِ منهم، وفي الحالِ اعتراه الفزعُ نفسُه الذي اختبرَه في جزيرة العناكِب. أنزلَ قُبّعته إلى مُستوى حاجبيه وحاولَ أن يظهرَ بمَظهرِ الصّلبِ والمُطمَئِن في آنٍ واحدٍ.

بالنّسبة إليه كانت قُبّعتُه الشّيء الوحيدَ الثّابِت والحاسِمَ في هَذه الجزيرة الغريبة حيثُ كلّ شيءٍ فيها أبيضُ وهامِسٌ ومُبهم.

ما عادَ بابا مومين واثِقًا من نفسِه كثيراً، لكنه آمنَ بِقُبّعته؛ كانت سوداءَ ومتينةً، وفي باطِنها رسمَت ماما مومين الكلمات «إلى ب م من م م» لتَمييزِها عن كافّة القُبّعات الرّسمية الأخرى في العالَم.

أخيراً حطَّ آخرُ مركبٍ على الشّاطئ ودُفِع إلى اليابسة، وتوقّفَ الهاتيفتنَر عن الحَفيفِ. حَوّلوا عيونَهم المُحمرّة نحو بابا مومين، جميعهم، وفي اللحظةِ التّالية بدأوا يتحرّكون صَوْبَه.



-«يُريدون معركةً،» فكّر بابا مومين، وفجأةً أصبح يقِظًا جدًّا ومُتحمّساً إلى حدّ ما. سيطرَت عليه رغبةٌ في التّعاركِ مع أيّ مخلوق، لا لشيءٍ إلّا ليعاركَ ويصيحَ وهو متأكّدٌ من أنّ مَن يعارِكهم مُخطِئون ويَستحقّون أن يُضربوا ضربًا مبرحًا.

لكن الهاتيفتنَر لا يتعاركون مع أحدٍ أبدًا؛ ولا يعترِضون على شيءٍ أو يكرهون أحدًا أو يُكوّنون عنه رأيًا على الإطلاق.

جاؤوا لِيتبادلوا مع بابا مومين الانحناءَ. أعدادٌ غفيرةٌ منهم. جميعُهم. وبالتّالي رفعَ بابا مومين قُبّعتَه وانحنى لهم. انحنى إلى أن بدأ يحسُّ بالصّداع يزحفُ نحوه. مِئات من الأكُفِّ لوّحت أمامَه إلى أن أخذَ هو أيضًا يلوّحُ بيديه من مُنطلَق شعورِه بالعجزِ المُطلق.

عندما تجاوزَه آخِر هاتيفتنَر كانَ بابا مومين قد نسي كلّ شيءٍ عن رغبته في العِراك. كانت سريرتُه مُستكينةً ووديعةً، وتبعَ الآخَرين خلالَ العشبِ الهامِس وقُبّعته بيدِه.

في هَذه الآونةِ تصاعدَت وتيرةُ العاصفةِ الرّعديةِ وراحت تحومُ في فضاءِ المساء مثل جدارٍ يكادُ يَنقَضّ. وفي الأعلى عصفَت الرّيح ودفعَت أمامها نُتفًا من الغيوم المُهمَلة التي أخذَت تَفِرّ مذعورةً.

على مقربةٍ من البحر سطعَ وميضُ برقٍ مفاجِئٌ ومتقطّعٌ، كانَ وهجُه ينطفئ ثمّ يعودُ ويندلعُ ثانية.

تجمّعَت حشودُ الهاتيفتنَر في مركَز الجزيرة والتَفتوا جنوبًا حيثُ لبثَت العاصفةُ الرّعدية تنتظرُ، تمامًا كما تفعلُ الطّيورُ البحريةُ قبل هبوبِ العاصفةِ. وسرعانَ ما بدأوا يُضِيئون واحِدًا تلوَ الآخَر مثل المصابيحِ الصّغيرة، ويتوهّجون بالتّزامُن مع البرق، والعشبُ تحتَهم يُطقطِق بالكهرباء.



استلقَى بابا مومين على ظهرِه واستكانَ يتأمّلُ الأوراقَ الخضراء الشّاحِبة المُحيطة به. أوراقٌ هشّةٌ رقيقةٌ إزاء سماءٍ مُظلمة. في كرسيهِ المُريح في البيت لديه مُتكأ طرّزَت عليه ماما مومين أوراقَ السّرخس. أوراقٌ شاحِبة الخُضرة على لبّادٍ أسودَ، كانت جميلةً جدًّا.

تسارعَت وتيرةُ العاصفةِ الرّعدية في دنوّها. أحسّ بابا مومين بصدماتٍ كهربائيةٍ طفيفةٍ في كفّيه فاعتدلَ جالسًا. كانَ الهواء مُحَمّلاً بالمطر.

فجأةً، شرعَ الهاتيفتنَر في رَفرَفة أَكُفّهم كما تُرفرِف أجنحةُ العثّ. تمايلوا وانحنوا ورقصوا، ومن الجزيرةِ المُوحشة تصاعَد ترنيمٌ يشبه طنينَ البَعوض. كانَ ذاكَ عويلُ الهاتيفتنَر، صوتٌ متوحّدٌ وتواقٌ كصوتِ ريحٍ في عنقِ زُجاجة. تملّكت بابا مومين رغبةٌ لا تُقاوم في أن يفعلَ مِثلهم: أن يترنّحَ ويتمايلَ، أن يُولوِل ويُخشخِش.

شعر بوخزٍ في أُذُنيه، وبدأت كفّاه تُرفرِفان. نهضَ، مشَى نحو الهاتيفتنَر. «لسرِّهم علاقةٌ بالعواصِف الرّعدية،» فكّر. «إنّها العواصِف الرّعدية التي لا يَنفكّون يبحثون عنها ويَتوقون إليها...»



خيّمَ الظّلام على الجزيرة، ووميضُ البرقِ كانَ يصبّ على الأرضِ من السّماء مُباشرةً، مِثل جَدولٍ جارٍ ذي فحيحٍ وبياضٍ مُرعبٍ. من بعيدٍ زأرَت الرّيحُ، ثمّ انفلَت زمامُ الرّعد. كان أعنَفَ رعدٍ على الإطلاق شهدَه بابا مومين.

راحَت أكوامٌ ثقيلةٌ من الحجارةِ تتدحرجُ جيئة وذهابًا، وذهابًا وإيابًا، والرّيح أمسكَت بتلابيبِ بابا مومين وألقَته على ظَهره فوق العشب.

قعد ممسكًا قُبّعته وهو يحسُّ بالرّيح تعصِفُ خلالَه، وفجأةً فكّر: «لا، ماذا جَرى لي؟ أنا لستُ من الهاتيفتنَر، أنا بابا مومين... ماذا أفعلُ هنا؟»

نظر إلى الهاتيفتنَر، وبسهولةٍ سَريانِ الكهرباءِ استوعبَ كلّ شيء. أدركَ أنّ العاصفةَ الرّعديةَ العظيمةَ هي فقَط ما يبعثُ شيئًا من الحياة في الهاتيفتنَر. فَهُم مَشحونون بقوّةٍ ولكن مُجمّدون على نحو مَيؤوسٍ منه. هُم لا يشعرون، وهم لا يُفكّرون. لا يستطيعون فِعلَ شيءٍ سوى السّعي. فقَط في حُضور الكهرباءِ يُمكنهم أخيراً أن يَحيوا، يَحيوا بفعاليةٍ وبِمشاعِرَ ساحِقةٍ وعارِمة.

ذاكَ ما صَبوا إليه. بَل ربّما لديهم القُدرة على جذبِ العواصِف الرّعدية عندما يَتجمّعون في حشودٍ غَفيرة...

-«نعَم، لا بُدَّ من أنّ هَذا هو الجوابُ،» قالَ بابا مومين لنفسِه. «الهاتيفتنَر المساكين. وأنا الذي كنتُ أجلسُ في شُرفتي مُقتنعًا بأنّهم مُميزون جدًّا وأحرارٌ، لِمُجرّد أنّهم لا ينطقون بكلمةٍ ودائمًا في حالةِ حركةٍ. وهم في الحقيقةِ ليسَ لديهم ما يقولونَه ولا كلمةً واحِدة على الأقلّ، وليسَ لديهم مكانٌ يذهبون إليه...»

فُتِحت أبواب السّماء وانهمَر المطرُ الذي شعّ بلونٍ أبيضَ وسطَ وميضِ البرق.

هبّ بابا مومين واقفًا. عادت إلى عينَيه زُرقتُهما السّابقة، وصاح: «أنا عائِدٌ إلى بيتي! أنا راحِلٌ فورًا!»

شمخَ بأنفه في الهواء وأرخَى قُبّعته على أُذنَيه. ثمّ هرعَ نازلاً إلى الشّاطئ، قفز على متنِ أحدِ المراكب البيضاء، رفعَ الشّراعَ وانطلقَ بلا تردُّدٍ يخوضُ البحرَ الهائِج.

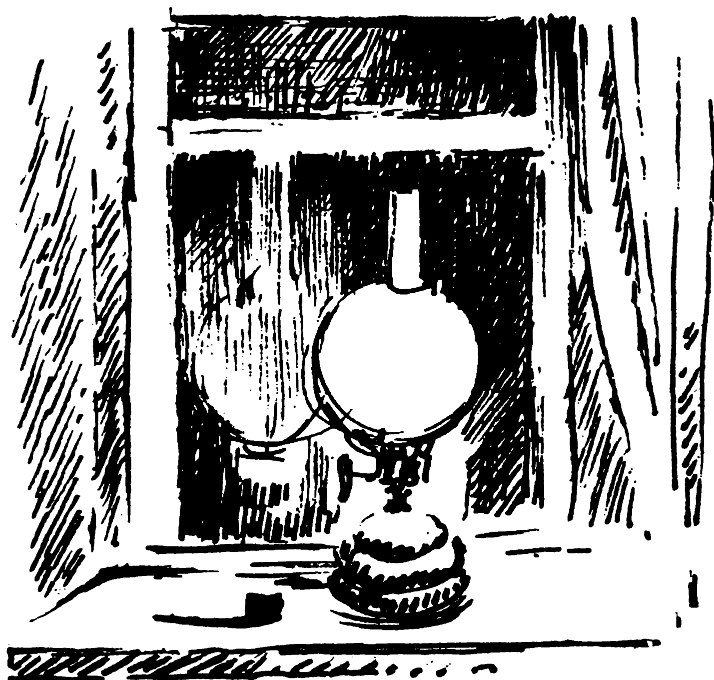
رجعَت إليه نفسُه المَعهودة، وفي رأسِه أفكارُه الخاصّةُ عن الأشياء، وما تاقَ إلّا إلى العودةِ إلى البيتِ.

-«تَخيّل فقَط، أن لا يكونَ المرءُ سعيدًا ولا خائِبَ الأمل أبدًا،» تفكّر بابا مومين بتبصّرٍ بينما تقدّمَ المركب الذي تسوقهُ العاصفة. «ألّا تحبّ أحدًا أبدًا ولا تغضَب منه ولا تسامحَه. ولا تنامَ أبدًا أو يلسعَكَ البردُ، ألّا ترتكبَ أيّ خطأ أبدًا وتُصابَ بوجع مَعدة وتُعالَجَ منه، ولا تحظَى أبدًا بحفلةِ عيد ميلاد، ولا تشربَ الجعةَ، ولا يُؤنِبَك ضميرُك...»

-«يا للهول!»

غمرَته السعادةُ وغمرَه الماءُ ولم يكُن بأيّ شكلٍ من الأشكالِ خائِفًا من العاصِفة الرّعدية. في البيت لن يكونَ لديهم أبدًا مصباحٌ كَهربائي، قرّرَ بينه وبين نفسِه؛ سيحتفِظون بمصابيحِ الكيروسين القديمةِ. اشتاقَ بابا مومين إلى عائلتِه وإلى شُرفته. فجأةً خطرَ له أنّه في البيت يستطيعُ أن يكونَ حُرًّا ومغامِرًا كما يجدرُ بأيّ بابا مومين حَقيقي.







سيدريك



الآن، من بعدِ أن أقدَمَ سنيف على التّخلّي عن سيدريك، يصعبُ على المرءِ أن يستوعِبَ كيف اقتنعَ ذلك الهَمجي الصّغير بفعلِ ما فعَلَه.

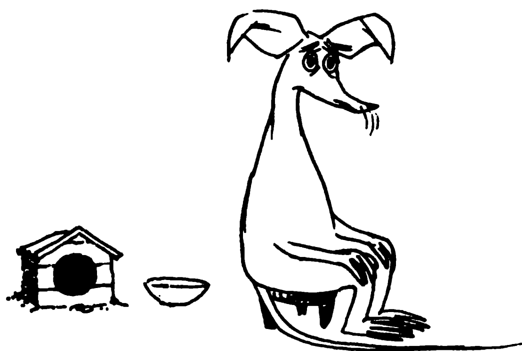
لم يسبِق مطلقًا أن فعلَ سنيف شيئًا كهذا، بَل على العكس تمامًا. هَذا علاوةً على أنّ سيدريك كانَ رائِعًا حقًّا.

سيدريك لم يكُن مخلوقًا حيًّا. سيدريك هو شيءٌ، ويا لَهُ مِن شيءٍ! عندَ النّظرةِ الأولى هو لا يَعدو كونه مجرّد كلبٍ صغيرٍ من الفراءِ، شِبه أجرَدٍ وبالٍ من كثرةِ العِناقِ، لكن نظرةً عن كثبٍ تبيّنُ أنّ عينَيه كانتا من الزّبَرجَدِ وأنّ ياقتَه مزينةٌ بحجر قمرٍ صغيرٍ وأصيلٍ إلى جانبِ المِشبكِ تمامًا.

إلى جانبِ ذلك، يرتسِمُ على وجهِه تعبيرٌ غيْر قابلٍ للتقليدِ، ولا يُمكن أبدًا أن يحظَى به أيُّ كلبِ آخَر غيْره. ولعلّ الأحجارَ شبه الكريمةِ تلك كانت أهمَّ بالنّسبة إلى سنيف من ذلك التّعبيرِ، إنّما لا ريْبَ في أنّه قد أحبَّ سيدريك مهما يكُن من أمرٍ.

وحالَما تخلّى عن سيدريك اِعتراه أسفٌ بالِغٌ إلى درجةِ القُنوط. فلا أكلَ ولا نامَ ولا تكلّمَ. ما عاد يفعلُ شيئًا سوى التّأسّي والنّدمِ.

-«لكن، يا صَغيري سنفوف،» قالت ماما مومين بقلقٍ، «إذا كنتَ تحبُّ



سيدريك إلى هَذه الدّرجة حقًّا، فلِماذا إذًا لم تعطِه على الأقلّ إلى شخصٍ تستلطفه وليسَ إلى ابنة غافسي؟»

-«أفٍّ،» تأفّفَ سنيف وهو يحدّقُ في الأرضية بعينَيه المُحمرّتَين السّقيمَتين، «هَذا خطأ مومين ترول. أخبرَني أنَّه إذا منحَ المرءُ شخصًا آخَر شيئًا يحبُّه كثيراً، فسَيستعيده عشرَ مرّات، وسيَشعر بشعورٍ رائِع بعدَ ذلك. لقد غرَّرَ بي لأفعلَ ما فعلتُه.»

-«أوه،» هتفَت ماما مومين. «حسنًا، حسنًا.» أردفَت بِقلّةِ حيلةٍ، إذ لم تجِد شيئًا أفضلَ لِتقولَه. شعرَت أنّ عليها التّفكيرَ في الأمر بِترَوٍ.

حلَّ المساءُ وذهبَت ماما مومين إلى السّريرِ. تمنّى الجميعُ للجميعِ ليلةً هانِئة وأُطفِئَت الأنوارُ تِباعًا. سنيف وحدهُ بقيَ صاحيًا يُحملِقُ في السّقف حيث ارتسمَ عليه ظلُّ فرعِ شجرةٍ كبيرٍ راحَ يتأرجحُ صعودًا ونزولاً تحت ضوءِ القمر. وعبرَ النّافِذة المفتوحةِ كانَ بمكنُه سماعُ هارمونيكا سنفكين تعزفُ في الليلة الدّافِئة في الأسفلِ عند النّهرِ.

عِندما غدَت أفكارُ سنيف على درجةٍ كبيرة من السّوداويةِ قفز مُغادرًا سريرَه

وقصدَ النّافذة. تسلّقَ منها نزولاً على سلّم الحبالِ ومضى خلالَ الحديقةِ حيث سطعَت أطيافُ نباتاتِ عُود الصّليب بلونٍ أبيضَ، بيْنما تجلّلت جميعُ الظِّلال الأُخرى بسوادِ الفَحم. كانَ القمر يتربّعُ عاليًا في السّماء، بمنأى عن كلّ شيءٍ، وغيْر مُكترثٍ بأحَدٍ.

كانَ سنفكين جالسًا خارجَ خيمتِه. لم يعزف أيّ لحنٍ مُتكامِل الليلَة، فقَط مُقتطفات من الموسيقى التي بدَت أشبَه بالتّساؤلاتِ أو بتلك الأصواتِ المُسايرة التي يُصدِرها المرءُ عندما لا يعرفُ ما عليه أن يقولَ.

جلس سنيف إلى جانبِه ونظرَ مَغمومًا إلى النّهر.

-«أهلاً،» رحّبَ به سنفكين. «جيّدٌ أنّكَ جئتَ. كنتُ جالِسًا هنا أفكّرُ في قصّةٍ يُمكن أن تُثيرَ اهتمامَك.»

-«لستُ مُهتمًّا بقصص الحَواري الليلة،» غمغَم سنيف وهو ينكمِشُ على نفسِه.

-«إنها ليسَت قصةَ حَواري،» قالَ سنفكين. «هي قصّةٌ حدثَت. حدثَت لخالةٍ من خالاتِ أُمّي.»

وهَكذا بدأ سنفكين حكايتَه، وهو يُدخّن غليونَه، وبين حينٍ وآخَر يُخضّلُ أصابِع قدمَيه بماءِ النّهرِ القاتم.

-«في يوم من الأيام كانَت هناك امرأةٌ تحبُّ مُمتلكاتها كلّها حبًّا جَمًّا. لم يكُن لديها أطفالٌ لِيسلّونَها أو يزعجونَها، لم تحتَج إلى العملِ أو طَهي الطّعام، ولم تهتمّ بِما يقولُه النّاس عنها، ولم تكُن من النّوع الذي يخافُ. وأيضًا فقدَت حِسّ اللهوِ والاستمتاعِ. بِمعنى آخَر رأت أنّ الحياةَ مُملّةٌ نوعًا ما.

-«لكنها أحبَّت مُمتلكاتها الجميلةَ وحرصَت على جمعِ الكثيرِ منها طوالَ حياتِها. صَنّفتها ولَمّعتها وجعلتها أبهَى وأبهَى وأكثَر متعةً للنّظرِ. والمرءُ ما كانَ ليُصدّقَ عينَيه عندما يدخلُ بيتَها.

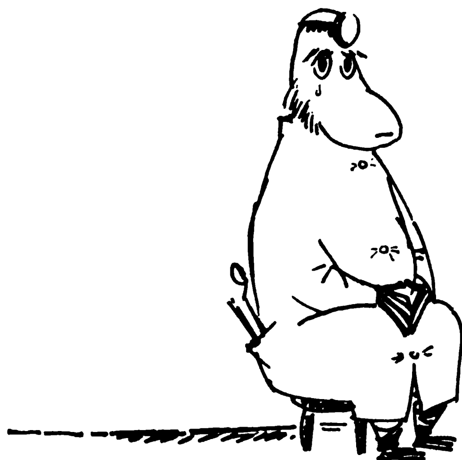
-«كانَت مخلوقةً سعيدةً.» قالَ سنيف بنبرةِ تأكيدٍ. «ما نوعُ الأشياءِ التي امتلكَتْها؟»

-«حسنًا،» تابعَ سنفكين، «كانت سعيدةً بِقَدْرِ استيعابِها لِمعنى السّعادةِ. والآن لا تُقاطِعني رجاءً. ثمّ في إحدى الليالي، حدثَ أنّ خالةَ أُمّي هَذه نزلَت إلى حجرةِ الغسيلِ المُظلمة لتأكلَ شريحةَ لحمِ ضلعٍ باردةً، وابتلعَت عظمةً كبيرةً. بعد ذلك شعرَت بإحساسٍ غريبٍ على مدى عدّة أيامٍ. وعندما لم تتحسَّن ذهبَت لترى طبيبَها. نقرَ الطّبيب على صدرِها واستمعَ، صَوّرَها بالأشعةِ وهزَّها، وفي نهايةِ المَطاف أخبرَها أنّ العظمةَ تلك قد علقَت بالعَرض في مكانٍ ما بين رِئتَيها، ومن المُستحيل دفعُها وتحريرُها. بمعنى آخر، خَشيَ من الأسوأ.»

-«باللهِ عليكَ،» هتف سنيف مُظهِرًا شيئًا من الاهتمامِ بالحكايةِ. «ظنَّ أنّها ستموت ولكنه لم يجرؤ على إخبارِها؟»

-«هَذا هو،» وافقَه سنفكين. «لكن خالةَ أُمّي هَذه لم تكُن لتخافَ بسهولةٍ، لِذا جعلَتْه يخبرها كم تبقّى لها، ثمّ عادت إلى بيتِها لتفكّرَ. فبِضعة أسابيع ليسَت بالوقتِ الكثير.

-«فجأةً تذكّرَت أنّها في شبابِها أرادت أن تستكشِفَ الأمازون، وأن تتعلّمَ الغطسَ في البحر، وأن تبنيَ دارًا كبيرةً ولطيفةً للأطفالِ الذين بِلا مأوى، وأن ترى بُركانًا، وأن تُعِدَّ حفلةً فخمةً لجميع أصدقائِها. لكن الأوانَ قد فاتَ على ذلك كلّه طبعًا. هَذا إضافةً إلى أنَّه لم يكن لديها أصدقاءٌ مطلقًا، لأنّها اهتمّت فقط بِجمع الأشياءِ الجميلة وهذا يتطلّبُ وقتًا.»



-«غدَت أكثَر فأكثَر حزنًا بينما راحَت تتحرّى غُرف بيتِها. مُقتنياتُها الرّائعة لم تمنحها الرّاحةَ. بَل على العكس جعلَتها تفكّرُ في اليوم الذي تصعدُ فيهِ إلى السّماء وتتركها خلفَها.

-«وفكرةُ البدءِ بمجموعةٍ جديدةٍ هناك في الأعلى لم تُسعدها قطّ، مهما كانَ السّبب.»

-«سيّدةٌ مسكينةٌ!» صاحَ سنيف. «أما كانَ في وسعِها أن تأخذَ معها ولو شيئًا صغيراً على الأقلّ؟»

-«لا،» أجابَ سنفكين. «هَذا غيْر مَسموح. والآن توقَّف عن مُقاطعتي رجاءً واستمِع. في ليلةٍ من الليالي خالةُ أُمّي هَذه استلْقَت في فراشِها صاحيةً تنظرُ إلى السّقفِ وتُمعِن التّفكيرَ. وحولها ينتصبُ الكثيرُ الكثيرُ من أثاثِها الجميل وعلى ذلك الأثاثِ الكثيرُ الكثيرُ من التُّحفِ الصّغيرةِ الجميلة. كانت مُقتنياتُها تزحمُ المكان، على الجدرانِ، في السّقفِ، في الخزاناتِ، في الأدراجِ. وفجأةً شعرَت أنّها تكادُ تختنق وهي بين كلّ تلك الأغراضِ التي ما عادَت تمنَحُها الرّاحةَ. وهَكذا واتَتها فكرةٌ.

كانت فكرةً طريفةً جعلَت خالةَ أُمّي هَذه تستغرقُ في الضّحك حيثُ هي مُستلقِية. وفجأةً على غيْر المُتوقَّع شعرَت بنشاطٍ جَسَدي، فنهضَت وارتدَت ثيابَها وبدأت تفكّرُ بِجدّيةٍ.

–«اجتاحَتْها فكرةُ التّخلّي عن كلّ شيءٍ تملكُه. رأت أنّ هَذا سيمنَحها مساحةً أكبر للتنفّس، وهو أمرٌ يحتاجُ إليه المرء إذا كانت لديه عظمةٌ عالِقة في جَوفِه، ويريدُ أن تتوافَر له القدرةُ للتّفكير في الأمازون.»

–«هذا سخيفٌ،» قالَ سنيف بخيبةِ أملٍ.

–«لا، ليس سخيفًا مطلقًا،» اعترَض سنفكين. «استمتعَت كثيراً وهي جالِسةٌ تفكّر في الأشياءِ التي ستستَغني عنها ولِمَن ستُعطيها.

–«كانَ أقاربُها كُثُر، وكانت أيضًا تعرفُ الكثيرَ من النّاس. فكما تَرى، هَذا مُحتملٌ جدًّا وإن لم يكُن لديكَ أصدقاءٌ. حسنًا، فكّرَت في الجميع، ولم تُغفِل أحدًا. وتساءلَت على ماذا يفضّلُ أن يحصلَ هو أو هي. بَدا ذلك لها مثلَ أُحجيةٍ مُسليّة.

–«وهي لم تكُن غبيةً بأيّ حالٍ. أنا أعطَتني هَذه الهارمونيكا: ولعلّكَ تجهلُ أنّها من الذّهبِ وخَشب الورد! حسنًا. فكّرَت مَليًّا بحكمةٍ بالِغة بحيث ينالُ كلّ واحدٍ ما يُناسبه تمامًا، وما كانَ قد حلمَ يومًا باقتنائِه.

–«كانت خالةُ أُمّي هَذه تميلُ إلى المُفاجآت أيضًا. فقد أرسلَت الأشياءَ في رزم، والمُتسلّمون لم يملكوا أدنى فكرةٍ عمّن أرسلَها، فَهُم لم يدخلوا بيتَها قطّ لأنّها كانت تخافُ دائمًا من أن يكسروا شيئًا فيه.

–«تسلَّت كثيراً وهي تتخيّلُ دهشتَهم، وبلبلةَ أفكارِهم وتخميناتِهم، وهَذا منحَها الشّعورَ بالتّفوّق. بَدا لها ذلك أقرَب إلى ما تفعلُه الجنيّاتُ اللاتي يُحقّقن الأماني في غمضةِ عينٍ وهُنّ يُحلّقن مُبتعدات.»



-«لكنني لم أُرسِل سيدريك في رزمةٍ،» صاحَ سنيف بعينَين جاحِظتين. «وأنا أيضًا لستُ على شَفير الموتِ!»

تنهّدَ سنفكين. «أنتَ لا تتغيّر أبدًا،» قالَ. «ومع ذلك حاوِل أن تستمعَ إلى قصةٍ جيّدة، أيُمكنكَ أن تفعلَ؟ حتّى لو لم تكُن عنكَ. وحاوِل أيضًا أن تُراعي شُعوري قليلاً. احتفظتُ بهذه القصّةِ لكَ، وأحيانًا يطيبُ لي أن أرويَ القصصَ. حسنًا، لا بأس. في الوقتِ نفسِه كانَ هناك شيءٌ آخَر يحدُث. اكتشفَت خالةُ أُمّي هَذه فجأةً أنّها أصبحَت قادِرةً على النّوم في الليل، وفي النّهار حلمَت بالأمازون، وقرأت كتبًا عن الغطسِ العميق في البحر، ورسمَت خططًا لدارِ الأطفالِ المَنبوذين. قضَت وقتًا ممتعًا، وهذا جعلَها ألطفَ من المُعتاد، وبدأ النّاسُ يُحبّون صُحبتَها. يجبُ أن أحذَرَ، فكّرَت بينها وبين نفسِها. قبلَ أن تَطرفَ عيني سيكون لدي كثيرٌ من الأصدقاء، ولا وقتَ هناك للتّحضيرِ لتلك الحفلةِ الفخمةِ التي حلمتُ بها...

-«باتَت غُرف بيتها مُتجدّدةَ الهواء أكثرَ فأكثر. وراحَت تُرسِل هديةً بعد

هديةٍ، وكلّما قَلَّت مُمتلكاتُها شعرَت بمزيدٍ من الخِفّة. أخيراً صارَت تمشي في غُرفٍ فارِغة، وهي تشعرُ أنّها بِخفّة بالونٍ، بالونٍ سعيدٍ وجاهِزٍ للتّحليق.»

-«إلى السّماءِ،» علّق سنيف بِنبرةٍ جافّة. «اِسمع الآن...»

-«توقّف عن مُقاطعتي طوال الوقت،» نَهرَه سنفكين. «ثمّة ما يُنبئني أنّكَ أدنى بكثيرٍ من أن تستوعبَ هَذه القصّةَ. لكنني سأُنهيها على أيّ حالٍ. جيّد. شيئًا فشيئًا غدَت غُرفها خاليةً من الأثاثِ، وخالةُ أُمّي هَذه لم تحتفِظ إلّا بسريرِها.

-«كانَ سريراً فخمًا وعريضًا بأعمدةٍ وقُبّةٍ، وعندما كانَ أصدقاؤها الجُدد يأتون للزيارة يجلسون على السّرير الذي يتّسعُ لهم كلّهم. وصِغار الحجم منهم يتربّعون على القُبّة. حظيَ الجميعُ بأوقاتٍ رائِعةٍ، وقلقُها الوحيد تركّزَ على الحفلةِ العظيمة التي لم يَبْدُ أنّ الزّمن سيسمحُ لها بإقامتِها.

-«كانوا في سمرِهِم يقضونَ الليلَ وهُم يقصّون رواياتٍ عن الأشباحِ، وحكاياتٍ مُضحكةً، ثمّ في مساءٍ ما...»

-«أعرفُ، أعرفُ،» قاطعَه سنيف باستياءٍ. «أنتَ مثلَ مومين ترول تمامًا. أعرفُ كيف انتهَت القصّةُ. ثمّ في مساءٍ ما تخلّت عن سريرِها أيضًا، ثمّ صعدَت إلى السّماء وهي في مُنتهى السّعادة، والشّيء الصّائِب الذي عليَ فِعله أن لا أُعطي سيدريك فقَط، ولكن كلّ ما لدي، ثمّ زيادةً على ذلك أُحَضِّر المِعولَ وأحفرُ قَبري!»

-«أنتَ أبلَه،» قالَ سنفكين. «أو ربّما أسوأ، أنتَ مُفسِدٌ للقصصِ. ما كنتُ بِصدَد قولهِ هو أنّ خالةَ أُمّي هَذه ضحكَت في ذلك المساءِ بكلّ جوارِحها بحيث قفزَت العظمةُ وخرجَت من جَوفها وأضحَت بألفِ خيرٍ!»

-«عجبًا!» صاح سنيف. «مسكينةٌ هي!»

-«ماذا تعني بقولِكَ مسكينة؟» سألَه سنفكين.



-«ألا ترى! أعطَت ممتلكاتِها كلّها للنّاسِ، ألم تفعَل؟» صاح سنيف. «فعلَت ذلك بلا جَدوى على الإطلاق! لأنّها لم تُمت في النّهاية! أتراها حاولت استرجاعَ تلك الأشياءِ بعدئذٍ؟»

عضَّ سنفكين غليونَه بغيظٍ ورفعَ حاجبَيه.

-«أنتَ هَمجي صغيرٌ أحمَق،» قالَ. «بَل هي تندّرَت بما حدثَ واعتبرَته حكايةً طريفةً. وبعدَ ذلك أقامَت حفلَتها. وبنَت دارًا للأطفالِ المُشرّدين. كانت في سنٍّ أكبَر من أن تذهبَ للغطس العميق في الماء، لكنها ذهبَت وتفرّجَت على أحدِ البراكين. ثمّ رحلَت إلى الأمازون. وهذا آخِر ما سمعناه عنها.»

-«هَذه الأشياءُ تكلّفُ مالاً،» قالَ سنيف باستنكارٍ واضِح. «لقد تخلَّت عن مُقتنياتها كلّها، ألَم تفعَل؟»

-«أفعلَت؟ أحقًّا فعلَت؟» أجابَ سنفكين. «لو أنّكَ أحسَنْتَ الاستماعَ لتذكَّرْتَ أنّها قد احتفظَت بسريرها الفخم ذي القُبّةِ والأعمدةِ، وهذا السّريرُ يا عزيزي سنيف كانَ من الذّهب الخالِص، وكان مُرصّعًا بحجارةٍ من الألماسِ والعَقيق.»

(أمّا بالنسبة إلى سيدريك، فقد صَنعت غافسي قرطَين لابنتها من حَجري الزّبرجد، وخاطَت زرّين أسوَدين مكانَ عَيني سيدريك. وفي أحدِ الأيام عثَر عليه سنيف وقد رُمي مُهملاً ومَنسيًّا تحت المطرِ، فأخذَه معه إلى البيت. كانَ المطرُ قد جرف حجرَ القمر، ولم يُعثَر عليه مُطلقًا. مع ذلك بقيَ سنيف يحبُّ سيدريك كما أحبّه دومًا، لكنه الآن باتَ يُحبّه من أجلِ الحبِّ فقَط. وهذا في الواقع يمنَحه بعضَ الشّرف، كما يبدو لي.)

مَلحوظةُ المُؤلفة.





شجرةُ التّنوبِ



في يومٍ من الأيام وقفَ الهِيمْيُولِن على سطحِ بيتٍ يكشطُ الثّلجَ. كانَ يلبسُ قُفّازًا صوفيًّا أصفَر، وبعد فترةٍ من العملِ على جَرفِ الثّلجِ أصبح القُفّازُ نديًّا ومُزعجًا. فخلعَه ووضعَه على قمّة المِدخنة، تنهّد وتابعَ ما كانَ يفعلُه. أخيرًا عثر على الفتحةِ التي في السّقفِ.

-«تلك هي،» قالَ الهِيمْيُولِن. «وفي الأسفلِ هُم مُستلقون وغارِقون في النّومِ. نائِمون ونائِمون ونائِمون. بيْنما هناك أناسٌ آخَرون يُهلكون أنفسَهم بالاستعدادِ لِمُجرّد أنّ عيدَ الميلادِ على الأبواب.»

وقفَ أمامَ الفتحةِ هُنَيهةً، وبما أنَّه لم يستطِع أن يتذكّرَ أَتفتحُ إلى الخارجِ أم إلى الدّاخلِ، خبطها بقدمِه بحذرٍ. فَفُتِحت إلى الدّاخل في الحالِ، وهكذا راح الهِيمْيُولِن يتدحرجُ نُزولاً وسط الثّلجِ والظّلامِ وكلّ تلك الأشياءِ التي خبّأتها عائِلةُ المومين في العِليّةِ للاستعمال لاحِقًا.

غَدا الهِيمْيُولِن في غايةِ الانزعاج، وما زادَ الأمرَ سوءًا أنَّه لم يكُن متأكّدًا أين تركَ قُفّازه الأصفَر. فذاكَ كانَ القُفّازَ المُفضّلَ لَديه.

وهكذا تعكّزَ نازِلاً الدّرجَ، دفع البابَ وفتحَه بِعُنف، وصاح بصوتٍ غاضِب:

«الميلادُ قادِمٌ! سئِمتُ منكُم ومن نومِكم، والآن يكادُ الميلادُ يحلّ في أيّ لحظةٍ تقريبًا!»

كانت عائلَة المومين في بياتِها الشّتوي في غرفةِ الجلوس كما اعتادَت أن تفعلَ. وكانت قد نامت بضعةَ شهورٍ، وفي نِيَّتها أن تبقى على هَذه الحالِ إلى أن يأتيَ الرّبيع. في رُقادِها الطّويل ذاك ما انفكَّ النّومُ اللذيذُ يُهدهِدها خلال ما بَدا لها أشبَه بعصرِ يوم صيفي طويلٍ. ثمّ على حينِ غِرّةٍ قلقلَ تيّارٌ باردٌ أحلامَ مومين ترول. وشخصٌ ما أخَذَ يشدُّ لحافَه ويصيحُ قائلاً إنَّه مُنهكٌ وأنّ الميلادَ في طريقه إليهِم.

-«أأَصبحنا في الرّبيع؟» غمغَم مومين ترول.

-«الرّبيع؟» صاح الهِيمْيُولِن بنبرةٍ عصبيةٍ. «أنا أتحدّثُ عن الميلاد، ألا تعرِف؟ أقولُ لكَ الميلاد. وأنا لم أَقُم بعدُ بأيّ ترتيباتٍ. وها هُم قد أرسلوني لأنبشَكم وأُخرجَكم. أعتقدُ أنّني أضعتُ قُفّازي. الجميعُ مُستنفِرون كالمجانين ولا شيءَ جاهِز بَعد...» وبِهذا تثاقَلَ الهِيمْيُولِن صاعِدًا إلى الأعلى ثانيةً، وخرجَ من فتحة السّقفِ.

-«ماما انهَضي،» قالَ مومين ترول بصوتٍ قَلِقٍ. «شيءٌ ما يحدثُ، يُسمّونَه الميلاد.»

-«ماذا تَعني؟» استفسرَت أُمُّه وهي تدفعُ أنفَها خارجَ لحافِها.

-«لا أدري حقًّا،» أجابَ ابنُها. «لكن لا يبدو أنّ أيّ شيءٍ جاهِزٌ، وثمّة غرضٌ مفقودٌ، والجميعُ مُستنفِرون كالمجانين. ربّما هُناك فَيَضان آخَر.»

هزّ برفقٍ كتفَ الآنسةِ سنورك وهمس: «لا تَخافي، لكنّ هناك شيئًا فظيعًا يأخذُ مجراهُ.»

-«إيه،» همهمَ بابا مومين. «هيّا اهدأوا الآن.»

ثمّ نهضَ وشغّلَ السّاعةَ التي توقّفَت في وقتٍ ما في شهرِ تشرين الثّاني.

وبعدئذٍ، تتبعوا خَطوات الهِيمْيُولِن النّديّة إلى الطّابقِ العُلوي، وتسلّقوا منه إلى سطحِ البيتِ.

كانت السّماءُ زرقاءَ كحالِها دومًا، ما يَعني أنّ الحدثَ هَذه المرّة لا يتعلّقُ ببركانٍ. لكن الوادي لاحَ مُجللاً بقطنٍ رطبٍ. قطنٌ رطبٌ يُكلّلُ الجبالَ والأشجارَ والنّهرَ والسّطحَ. والجوُّ باردٌ، أبرد بكثيرٍ من شهرِ نيسان.

–«أهَذا بياضُ البَيْضِ؟» استفسرَ بابا مومين بدهشةٍ. جمعَ بعضَ القطنِ بِكفّه وأمعنَ النّظرَ فيه. «أتراهُ قد طلعَ من الأرضِ؟» قالَ مُتسائلاً، «أَم سقطَ من السّماء؟ في حالِ جاء كلُّه دفعةً واحدةً، فلا بُدّ مِن أن هَذا غيْر مُبهج كثيراً.»

–«لا بابا، هَذا ثلجٌ،» قالَ مومين ترول. «أعرف أنَّه ثلجٌ، وهو لا يسقطُ دفعةً واحدةً.»

–«لا؟» ردَّ بابا مومين. «حسنًا، هو مع ذلكَ يَبقى غيْر مُبهجٍ.»

مرّت عمّةُ الهِيمْيُولِن بالبيتِ وعلى زلّاجتها شجرةُ تنّوبٍ.

–«أراكُم قد استيقظَتم أخيراً،» قالت بطريقةٍ عَرَضيةٍ. «يُستحسنُ أن تحصلوا على شجرةِ تنّوب قبل حلولِ الظّلام.»

–«لكن لِماذا...» بَدأ بابا مومين.

–«لا وقتَ لديَ الآن،» صاحت عمّة الهِيمْيُولِن من وراءِ كتفِها واختفَت بسرعةٍ.

–«قالت قبلَ حُلولِ الظّلام،» همسَت الآنسة سنورك. «ما يَعني أنّ الخطرَ يأتي مع الظّلام.»

–«والمرءُ يحتاج إلى شجرة تنّوب للحمايةِ،» انبَرى بابا مومين يقول مُتفكّراً. «لا أفهمُ شيئًا.»

-«ولا أنا،» وافقَته ماما مومين بذهنٍ شاردٍ. «ضَعا جوارِب وأوشِحةً صوفيّةً عِندما تخرُجان لتجلِبا شجرةَ التّنوب. سأشعلُ نارًا جيّدةً في الموقِد.»

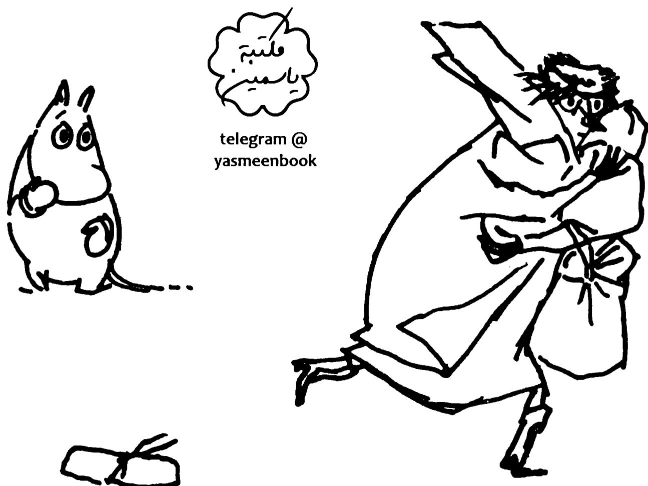
حتّى مع احتمالِ أن تكونَ هناك كارثةٌ في طريقها إليهم، قرّر بابا مومين الامتناعَ عن قطعِ واحِدة من أشجار التّنوبِ التي لديه، لأنّها بالنسبةِ إليه ذات أهميةٍ خاصّةٍ. بدلاً من ذلك تسلّقَ هو ومومين ترول سياجَ حديقةِ غافسي واختارا شجرةَ تنّوبٍ ضخمةً ما كانت غافسي على أيّ حالٍ لِتستفيدَ منها في شيءٍ.

-«أمِنَ المُفترضِ أن يَحتميَ المرءُ بها؟» تساءلَ مومين ترول.

-«لا أدري،» أجابَ بابا مومين وهو يلوّحُ بفأسِه. «أنا لا أفهمُ شيئًا.»

كانا قَد أصبحا عند النّهرِ تقريبًا وهُما يعودان أدراجَهما عِندما أقبَلَت غافسي تجري في اتجاهِهما وهي تحملُ الكثيرَ من الرّزم والأكياسِ الورقيةِ. بدَت مُحمرّةَ الوجهِ وفي غايةِ الحماسةِ إلى درجة أنّها ولِحُسن الحَظّ لم تُميّز شجرتَها.

-«يا للمهامّ التي يَنبغي إنجازُها، يا لَهُ من هرجٍ ومرجٍ!» صاحت غافسي.



«القنافذُ غيْر المُهذّبة لا يَنبغي أن يُسمحَ لها بـ... آه.. وكما أخبرتُ ميسابيل، هَذا شيءٌ مؤسِفٌ...»

-«التّنوب،» قاطعَها بابا مومين وهو يمسكُ يائِسًا بفراءِ ياقَتِها. «ماذا يفعلُ المرءُ بشجرةِ التّنوبِ؟»

-«التّنوب،» كرّرَت غافسي بارتباكٍ. «التّنوب؟ أوه، كم هَذا مُقلِقٌ! أوه، كم هَذا مروّعٌ... أنا لم أُهندِم شجرتي بَعد... كيف بحقِّ الله يُمكن أن أجدَ الوقتَ...»

أسقطَت عدّةَ رزمٍ على الثّلجِ، وانحرفَت طاقِيتها، وكادَت دموعُها تنفجرُ من شدّةِ توتّرِ أعصابِها.

هزّ بابا مومين رأسه وعادَ وحمَلَ شجرةَ التّنوبِ.

في البيتِ، عملَت ماما مومين على جرفِ الثّلجِ من الشّرفةِ بوسَاطةِ مِجرفةٍ، ووضعَت في الخارجِ أحزِمةَ النّجاةِ وأسبرين وبندقيةَ بابا مومين القديمَةَ وبعضِ الكماداتِ الدّافِئة. إذ على المرءِ أن يبقى على أهْبةِ الاستعدادِ.

في الأسفلِ ناحيةَ طّرفِ الأريكةِ الأقصَى لمَحت واحِدًا من سُكّان الغابةِ الصّغارِ قابعًا هناك وبيْن يديه كوبُ شاي. كانَ قد جلسَ وقتًا طويلاً تحت الشّرفة والبؤسُ الشّديدُ بادٍ عليه، فَدَعَته ماما مومين إلى الدّخولِ.

-«حسنًا، ها هي شجرةُ التّنوبِ،» قالَ بابا مومين. «لو نعرفُ فقَط كيفَ ينبَغي استعمالُها. قالت غافسي أنّ علينا أن نُهندمَها.»

-«ليس لدينا شيءٌ بهذا الحجمِ الكبير،» أجابت ماما مومين بقلقٍ. «ماذا عنَت يا ترى بقولِها ذاكَ؟»

-«ما أجملَ شجرةَ التنّوبِ هذه،» صاح ساكِنُ الغابةِ الصّغيرُ، ومن فرطِ خجلِه رشفَ جرعةَ شاي بطريقةٍ مُنفّرة، بعدَ أن اعتراهُ النّدمُ لِتجاسرِه على الكلامِ.



-«أَتَعرفُ كيفَ نُهندِمُ شجرة تنّوبٍ؟» سألَته الآنسةُ سنورك.

تضرّجَ ساكِن الغابةِ الصّغيرُ بِحُمرة قانيةٍ وهمسَ: «بأشياءٍ جميلةٍ، بأحلَى ما يخطرُ على بالِكم ويتسنّى لكم. هَكذا سمعتُ.» ثمّ، والخجلُ يغمرُه لطمَ وجهَه بِكَفّيه فدلقَ كوبَ الشّاي، ثمّ أسرعَ واختفَى عبر بابِ الشّرفةِ.

-«اسكتوا الآنَ لحظةً رجاءً، واتركوا لي المجالَ لأفكّر،» قالَ بابا مومين. «إذا كانَ ينبغي أن نهندِمَ شجرةَ التّنوبِ بأشياءٍ جميلةٍ، إذًا ليسَ الهدفُ منها الاحتِماءَ بها والتّواري فيها. الفكرةُ على ما يَبدو أن نسترضيَ الخطرَ بطريقةٍ ما. أعتقدُ أنّني بدأتُ أفهمُ.»

حملوا شجرةَ التّنوبِ إلى الحديقة وغَرسوها جيدًا في الثّلجِ. ثمّ بَدأوا يُزيّنونها تزيينًا كاملاً بأحلى ما خطرَ على بالِهم من أشياءٍ.

علّقوا عليها الأصدافَ الكبيرة من مشاتِل أزهارِ الصّيف، والأصدافَ الصّغيرةَ من عِقْدِ الآنسة سنورك. أنزلوا مَوشُورات ثُريا غرفةِ الجلوس وثبّتوها على الأغصان، وفي القمّةِ وضَعوا وردةً حريريةً حمراءَ قدَّمَها بابا مومين في يومٍ ما هديةً إلى ماما مومين.



جلبَ الجميعُ أجملَ ما عندهم ليدفعوا بهِ خطرَ قوى الشّتاء المُستَعصية على الفَهم.

عندما اِنتهى تزيين شجرةِ التّنوب مرَّت عمّة الهيمْيُولن بزلّاجتها مرّةً أُخرى. كانت تتجهُ نحو الدّربِ المعاكِس، وبَدا استعجالُها أعظمَ مِن ذي قَبل.

–«انظُري إلى تنّوبتنا،» صاح مومين ترول مُناديًا عليها.

–«يا ربّي،» هتفَت عمّةُ الهيمْيُولِن. «لكن لطالَما كُنتم مُختلفين قليلاً عن غيْركم من النّاس. الآن يجبُ أن... أوه، ليسَ لدي طعامٌ جاهِزٌ للميلادِ بعد، ولا أقلّ القليلِ منهُ.»

–«طعامٌ للميلادِ،» كرّر مومين ترول. «أيأكلُ؟»

لم تسمع العمّةُ ما قالَه. «لا يُمكن أن تتفادَوا تحضيرَ وجبةِ عشاءٍ في أدنى الأحوالِ،» هتفَت بعصبيةٍ ومضَت تنزلُ المُنحدرَ وزلّاجتُها تئزُ.

اشتغلَت ماما مومين طوالَ فترةِ العصر. وقبلَ هبوطِ الظّلام بقليلٍ كانت قد طبخَت الطّعامَ للميلاد، وسكبَته في طاساتٍ صغيرةٍ حول شجرةِ التّنوب. كانَ هناك عصيرٌ ولبنٌ وفطيرةُ عنّابٍ وشرابُ البيْضِ المَخفوق وأصنافٌ أُخرى ممّا تحبُّ عائلةُ المومين.

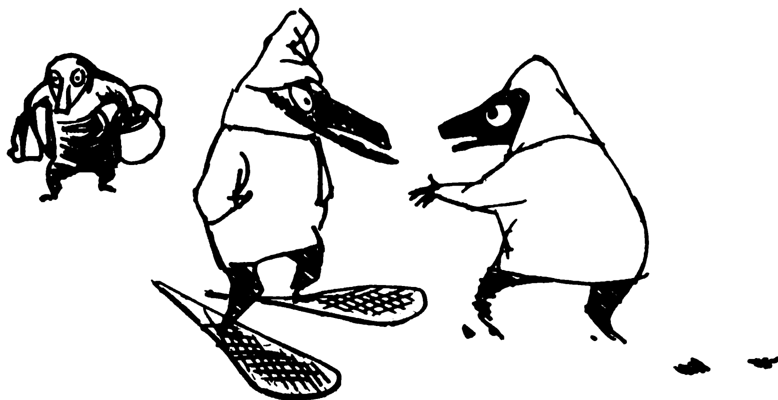
-«أَتظنّون أنّ الميلادَ جائعٌ جدًّا؟» تساءلت ماما مومين بشيءٍ من القلَقِ.

-«ليسَ أسوأ منّي على الأرجح،» قالَ بابا مومين بلهفةٍ. كانَ يشعرُ بهَجمةِ بردٍ تقتربُ وهو جاثمٌ على الثّلج ولحافُه يُغطي أُذنَيه. لكن طبعًا يَنبغي أن تلتزمَ المخلوقاتُ الصّغيرةُ جانبَ الأدبِ الجَمّ في حَضرةِ قوى الطّبيعةِ العُظمى.

في الوادي سرعان ما شعّت نوافِذُ البيوت بالنّور. وأُضيئت الشّموعُ تحتَ الأشجار وفي جميعِ الأعشاشِ بين الأغصانِ، وخفَقانُ لهيبِ الشّموع راحَ يُومِض بسرعةٍ وهو يعبرُ أكوامَ الثّلجِ. ألقَى مومين ترول نظرةً مُتسائِلة على أبيه.

-«نعَم،» قالَ بابا مومين وهزّ رأسَه موافِقًا. «علينا أن نستعدَّ لِكافّة الاحتمالاتِ.» فدخلَ مومين ترول البيتَ وجمعَ كلَّ ما استطاعَ العثورَ عليه من شموعٍ.

غرسَها في الثّلج حول شجرةِ التّنوب وأشعلَها بحذرٍ، واحدةً تِلو أُخرى، إلى أن شكّلت مجتمعةً دائرةَ ضوءٍ صغيرةً وكفيلةً بِدَرءِ خطرِ العتمةِ وخطرِ الميلاد. بعد فترةٍ بَدا أنّ كلّ شيءٍ يتسَربلُ بالهدوءِ في الوادي؛ ما يُرجّحُ أنّ الجميعَ قد أوَوا إلى



بيوتِهم بانتظارِ ما سيأتي. فقَط ظلَّ واحِدٌ وحيدٌ راحَ يجولُ بيْن الأشجارِ. كانَ ذاك الهِيمْيُولِن.

-«مرحبًا،» حيّاهُ مومين ترول بصوتٍ خافِت. «أَهُو قادِمٌ؟»

-«لا تُزعجني،» دمدَم الهِيمْيُولِن بوجهٍ مُتجهّمٍ وهو يتفحّصُ قائمةً طويلةَ شُطِبت مُعظم بُنودها.

جلس أرضًا قُرب إحدى الشّموعِ وبدأ يَعدُّ على أصابعه. «ماما، بابا، غافسي،» غمغَم. «أبناءُ العمِّ... القنافِذُ الكبارُ... يُمكنني أن أتجاهلَ الصِّغار مِنهم. وسنيف لم يُحضِر لي شيئًا السّنةَ الماضِية. ثمّ ميسابيل والهومسان، وعَمّتي طبعًا... هَذا يُصيبني بالجنونِ.»

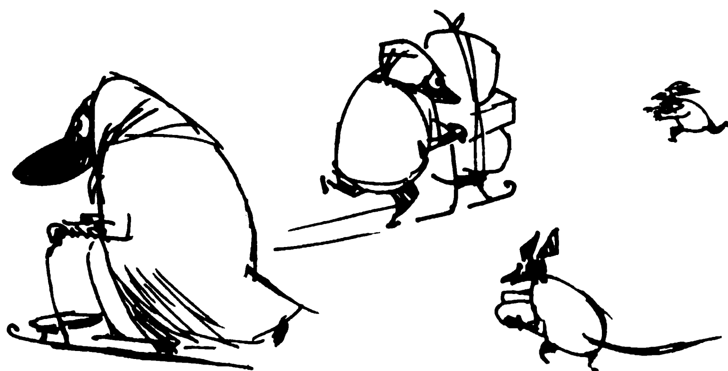
-«ما الحكايةُ؟» استفسَرت آنسة سنورك بقلقٍ. «أَحَدثَ لهم شيءٌ؟»

-«هَدايا،» هتفَ الهِيمْيُولِن. «المَزيد والمَزيد من الهدايا كلّما جاء الميلادُ!»

شطبَ بندًا في قائِمته بِخَربشةٍ مُتعرِّجة وانطلَق في حالِ سبيله.

-«اِنتظِر!» صاح مومين ترول. «فسِّر ما تَعني رجاءً... وقُفّازُكَ...»

لكن الهِيمْيُولِن اِختفى في الظّلامِ كما فعلَ الآخرون الذين كانوا في عجلةٍ من



أمرِهم والاضطرابُ من قدومِ الميلادِ يَعتَمِل فيهم.

وهَكذا سارَعت عائلةُ المومين إلى البيت، وانهمكَ كلّ فردٍ فيها يبحثُ عن بعضِ الهدايا. اِختارَ بابا مومين أفضلَ خيطِ صنارةٍ لديه مع عُلبته الجميلة. كتبَ «للسيّدِ الميلاد» على العُلبة ووضَعها خارِجًا على الثّلج. آنسة سنورك خلعَت خَلْخالَها، تنهّدَت قليلاً، ولفَّته بورقةٍ حريريةٍ.

فتحَت ماما مومين دُرجها السّرّي وأخرجَت كتابَ الرّسومِ. الكتابُ المُلوّنُ الوحيدُ والفريدُ من نوعِه في الوادي بأَسره.

أمّا هديةُ مومين ترول فكانت سَخيّةً ومُميّزة جدًّا ولم يُرِها لأحدٍ. ولم يُخبر أيّ شخصٍ ماذا اِنتقى، ولا لاحِقًا في الرّبيع.

بعدَ ذلك عادوا إلى الجلوس وسطَ الثّلجِ وانتظروا قدومَ الضّيفِ المُخيف.

مرَّ الوقتُ ولم يحدُث شيءٌ.

لا شيءَ سوى ساكِنِ الغابةِ الصّغيرِ الذي دلقَ كوب الشّاي، إذ ظهرَ من وراءِ كوخِ الحَطب وفي صُحبتِه جميعُ أقارِبه وأصدقائِهم وأقاربِ الأصدقاءِ. وجميعُهم مثلهُ صِغارُ الحجم ورَماديو اللونِ وبائِسون ومُتجمّدون من البردِ.

-«عيدُ ميلادٍ سعيدٌ،» همسَ ساكِنُ الغابة باستحياءٍ.

-«أنتَ أوّلُ مَن يقولُ شيئًا كَهذا،» قالَ بابا مومين. «ألا تَشعرون بالخوف ممّا سيحدُث عندما يأتي الميلادُ؟»

-«هَذا هو،» غمغَم ساكِنُ الغابةِ الصّغيرُ وجلسَ على الثّلجِ مع أقاربِه. «أَيمكن أن نتفرّجَ؟ تنّوبتكُم رائعةُ الجمالِ.»

-«وهذا الطّعامُ!» قالَ أحدُ الأقاربِ بصوتٍ حالمٍ.

-«وهَدايا حَقيقية،» قالَ آخَر.



-«طوالَ عمري حلمتُ برؤيةِ هَذا عن قُربٍ،» قالَ ساكِنُ الغابةِ الصّغيرُ وهو يتنهّدُ.

خيّمَت على الجوِ فترةٌ من الصّمت. احترقَت الشّموعُ بثباتٍ في اللّيلةِ الهادِئة. وجلسَ ساكِن الغابةِ وأقاربُه بسكونٍ تامّ. كانَ في وسعِ عائلةِ المومين أن تلاحِظَ كيف كان إعجابُهم وتشوّقُهم يَزدادان أكثرَ فأكثر مع مُرور الوقتِ. وأخيراً دنَت ماما مومين من بابا مومين وهمسَت: «أترى أنتَ أيضًا ما أراهُ؟»

-«آه نعَم.. لكن إذا...» اعترضَ بابا مومين.

-«لا يَهمّ،» قالَ مومين ترول. «إذا غضبَ الميلادُ يُمكن أن نغلقَ أبوابَنا وربّما نبقى بأمانٍ في الدّاخلِ.»

ثمّ التفَت إلى ساكِن الغابةِ الصّغيرِ وقال: «يُمكنك أن تحصلَ على كلِّ شيءٍ.»

لم يصدِّق ساكِنُ الغابةِ أُذُنيه في البداية. تقدّمَ بحذرٍ مُقتربًا من شجرة التّنوب يَتبعه أقارُبه وأصدقاؤهم وشوارِبُهم ترتعشُ خشوعًا.

فَهُم لم يَحظوا في يوم قطّ بعيدِ الميلاد الخاصّ بهم.

-«أعتقدُ أنَّه من الأفضلِ لنا أن نغادرَ الآن،» قالَ بابا مومين بصوتٍ مُتوجّسٍ.

هَرعوا إلى الشّرفة، أقفلوا البابَ،

واختبأوا تحتَ الطّاولة.

لم يحدُث شيءٌ.

بعد قليلٍ نظروا باضطرابٍ من النافذة.



رأوا تلك المخلوقاتِ الصّغيرةَ تجلسُ حول شجرةِ التّنوب، تأكلُ وتشربُ وتفتحُ الهدايا، وتستمتعُ بوقتِها أكثرَ من أيّ يومٍ مضى في حياتِها. وفي النّهاية، تسلّقَت تلك

المخلوقاتُ شجرةَ التّنوب وثبّتَت الشّموعَ المُشتعلةَ على أغصانِها.

-«ينبَغي فقَط أن تكونَ هناك نجمةٌ في قمّتِها،» قالَ عمٌّ ساكِن الغابةِ الصّغير.

-«أتَظنُّ؟» أجابَه ساكِنُ الغابة وهو يتأمّلُ وردةَ ماما مومين الحَريريةَ الحَمراءَ. «ما دامَت الفِكرة صحيحةً فأيُّ فرقٍ قد تُحدِثه النّجمةُ؟»

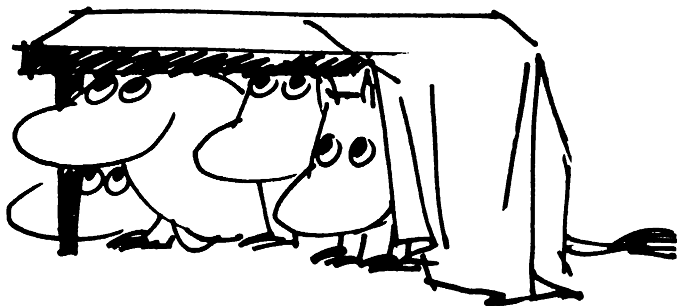
-«ينبغي أن تكونَ الوردةُ نجمةً،» همسَت ماما مومين للآخَرين. «لكن ما معنى هَذا بحقّ الله...؟»

رفعوا عيونَهم نحو السّماءِ؛ كانت سوداءَ ونائيةً ومع ذلك مُزدانةً بالنّجومِ على نحوٍ لا يُصدّق. نجومٌ تزيدُ ألفَ مرّةٍ عن تلك التي تُزيّنُ سماءَ الصّيف. وأكبرُها دنَت وحطّت على قمّةِ شجرة التّنوب بالضَّبط.

-«أشعرُ بالنُّعاسِ،» قالت ماما مومين. «أنا مُنهكةٌ أكثَر من أن أتساءلَ عمّا يَعنيه هَذا. لكن يتهيأ لي أنّ كلَّ شيءٍ قد انتهَى على خيرٍ.»

-«على الأقلّ أنا ما عدتُ أخشَى الميلادَ،» قالَ مومين ترول. «أعتقدُ أنّ الهِيمْيُولِن وعمّتَه وغافسي قد أساؤوا فَهمَ الأمرِ بأكملِه.»

وضعوا قُفّاز الهِيمْيُولِن الأصفرَ على سياجِ الشّرفةِ حيثُ من المؤكّدِ أن يراه، ثمّ عادوا إلى غرفةِ الجلوسِ لِيواصلوا نومَهم إلى مطلعِ الرّبيعِ.



توفه يانسون

توفه يانسون ١٩١٤- ٢٠٠١ هي الابنة البكر لعائلة تميزت بالحس الفني. كان والدها فيكتور يانسون نحاتا معروفا، ووالدتها رسامة اسمها سيني هامر يانسون. في سنة ١٩٦٨ كتبت توفه يانسون كتابا بعنوان Bildhuggarens dotter وصفت فيه عائلتها البوهيمية الفنية، وطفولتها في ظلّ هذا الجو في مدينة هلسنكي حيث كانت تقطن العائلة. كان فصل الصيف يعني لها كثيرا حيث درجت على قضاء إجازتها في الريف الفنلندي الغني بجزره وشواطئه.

في ذلك الجوّ، كان امتلاك توفه للميول الفنية أمرًا متوقعا. أنهت دراستها الثانوية في الخامسة عشر من عمرها، ودرست الفنون في هلسنكي وباريس. سافرت إلى عدة مدن أوروبية، وعرضت فيها نتاجها الفني.

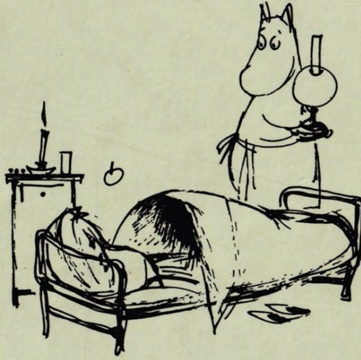
ظهر أول كتبها عن المومين سنة ١٩٤٥، وكانت تنشر كتاباتها موقعة بإسم سنورك في مجلة غارم التي درجت آنذاك على نشر الرسوم المضحكة التي تمازح السياسيين وغيرهم، ثم حولت شخوصها إلى أبطال لقصصها في مجموعة قصصية سُميتْ بكتب المومين، وهي مجموعة لقيت رواجا منقطع النظير في أوروبا والعالم كله، ونقلت إلى ما لا يقل عن ٤٠ لغة. وتحولت أيضا إلى أفلام ومسرحيات في الراديو والتلفزيون.

حصلت توفه يانسون على جوائز أدبية عديدة؛ منها جائزة هانز كريستيان اندرسين في عام ١٩٥٣ وفي عام ١٩٧٢ حصلت على جائزة موربا كا السويدية، وجائزة فنلندا التقديرية عام ١٩٩٣، وجائزة الأكاديمية السويدية عام ١٩٩٤.



تُوفه يانسون مع شخوصها





يتضمن هذا الكتاب تسع قصص طريفة وباعثة على البهجة عن سكان وادي المومين؛ من نوبة الخفاء التي ألمت بالصغيرة نني، إلى أول ميلاد تشهده عائلة المومين التي استيقظت من سباتها الشتوي فجأة.
هذه الحكايات كفيلة بإسعاد هواة كتب توفه يانسون؛ الصغار والكبار على حدّ سواء

***

إبداع توفه يانسون وفلسفة الحياة لديها يبقيان رائعين دائمًا وأبدًا.

The Horn Book

***

لغة يانسون البسيطة، وموهبة الفكاهة، والروابط الواقعية بين الأحداث الغريبة تذكّر المرء بالكاتب آلن اليكسندر ميلن وحكاياته عن الدبّ تيدي.

Alison Lurie: The New York Review of Books

***


ISBN 978-91-87333-43-9
9 789187 333439

دار المنى